مجلة
بينات
العدد 14
رجب 1447هـ - ديسمبر 2025
ملف العدد
أربعة أعوام من
حكم الإمارة الإسلامية

موضوعات العدد

الافتتاحية 03

التحرير

تجربة أفغانستان...دروس من خارج الصندوق 06

أ. عبدالرحمن حارث

من براثن الاحتلال إلى سيادة الحكم 13

د. زاهد جلالي

أفغانستان ومكر الأمريكان.. إلى أين..؟ 19

د. عبدالعزيز كامل

من فقه الأولويات وفقه التدرج 32

د. أمين الدميري

موضوعات العدد

لماذا كان التاريخ ضرورة 53

أ.د. محمد أمحزون

تأملات في معاني آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 68

أ.د.حكمت حريري

الشيخ ابن عثيمين فقيه عصر وعالم أمة 76

أ.د. حسن الكتاني

قراءة نقدية لتعبيرات المستشرقين للسيرة النبوية 84

تصدر عن رابطة علماء المسلمين

رابطة علماء المسلمين
Muslim Scholars Association

العدد 14

تصميم وإخراج
القسم الإعلامي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

تواصل مجلة بينات رسالتها في بيان الحق ونشر الوعي الشرعي والفكري، مستضيئةً بنور الوحي في قراءة واقع الأمة وقضاياها. قال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ) [الكهف: 29].

يأتي ملف هذا العدد بعنوان: "أربعة أعوام من حكم الإمارة الإسلامية"، ليتناول واقع هذا البلد المسلم بعد عقود من الصراع، ويستعرض جهود أبنائه في بناء مستقبل آمن قائم على الشريعة والعدل، ودور الأمة في مؤازرتهم والدعاء لهم.

هيئة التحرير

تجربة أفغانستان الإسلامية
دروس من خارج الصندوق

بقلم / أ. عبدالرحمن حارث

ترسخت أقدام الإمارة الإسلامية في أفغانستان على مدى أربعة أعوام, بعد أن واجهت تحديات هائلة في تلك الفترة المؤقتة, التي لم تقل في صعوبتها عما واجهته خلال عشرين سنة من الحرب والمعاناة, وهي تحارب أولًا قوى الاحتلال الأمريكي والتحالف الدولي الصليبي من خلفها, والجيش الأفغاني العميل ثانيًا, إلى أن خفف التحالف من وجوده تاركًا الجهد الأكبر على الجيش العميل, الذي لم يتحمل قوة بأس حركة طالبان, فانهار إثر انسحاب القوات الأمريكية في أغسطس من العام 2021م.

ولقد كان التحدي كبيرًا بعد هذا الانسحاب؛ فبلد بلا جيش, يفتقر إلى الاعتراف الدولي, ويعاني من توقف المعاملات الدولية النقدية مع العالم, جُمدت نحو 10 مليارات دولار من احتياطاته من النقد الأجنبي المرهونة بسبب الحكومة السابقة العميلة,

في بنوك أمريكية (أو استولت الولايات المتحدة عليها, بعبارة أدق), منعت المساعدات التي كانت تقدم لبعض قطاعات من شعبه تحت الاحتلال (تصل إلى 8 مليارات دولار سنوياً), وشعب يبلغ عدد مدمنيه 4-5 ملايين, أي نحو 10% من سكانه, ويعاني فقراً مدقعاً إذ يبلغ حجم انتاج الفرد في أفغانستان قبل طالبان نحو 40 دولار شهرياً, ومعدل نمو ضعيف, وهشاشة شديدة في بنيته الأساسية بسبب تعيين حكومات متعاقبة تحت الاحتلال نهبت ثروات البلاد على مدى عقدين،

سبقتها عقود من الحروب والاحتلال والفوضى. وخزينة خاوية نهبتها الحكومة السابقة العميلة.

لكن الله سبحانه وتعالى قد هيأ لهذا البلد ما جعله يقف شامخًا طوال تلك السنين،حتى عبر قنطرة المعاناة الأولى، ونجح في تجاوز امتحانها بتوفيق من الله ثم بحكمة وقيادة مسلمة, قدمت مصلحة المسلمين على مصالح قياداتها الشخصية فصارت في موضع آخر.

هذا الموضع يتمثل في استقرار وأمن لم تشهده أفغانستان منذ نحو نصف قرن، وهذا إنجاز لم يسبق له مثيل، يضاف إليه إنجازات كثيرة في مجالات الاقتصاد المتمثلة في الزراعة والصناعة والتعدين والطاقة والتجارة الخارجية، وكذلك في تحديث الجيش والشرطة، والصحة والتعليم، والبنية التحتية من تشييد عدد كبير من السدود والجسور والطرق والمنشآت الخدمية كالمستشفيات والمؤسسات العلمية والترفيهية.. إلخ.

والحقيقة أن هذا لم يأتِ من فراغ، فدونه ما يستدعي دراسة التجربة من زواياها المختلفة، واستنباط العبر والدروس منها.

وأول هذه الدروس من هذه التجربة الناجحة (حتى الآن): هو أن نظام حكم الإمارة مضى في حكمه متصالحًا مع مبادئه التي جاء إلى الحكم بها،

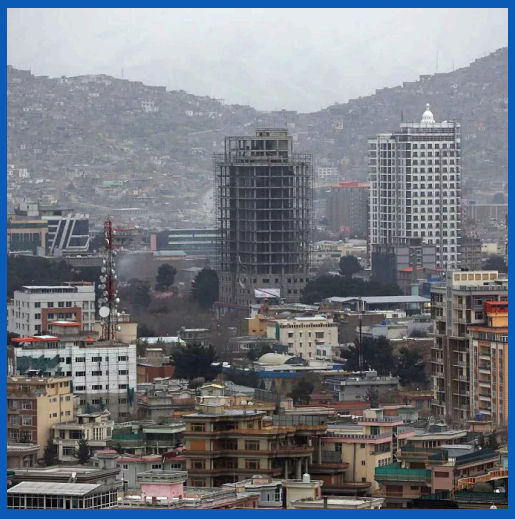

فهي لم تزل ملتزمة بتطبيقها للشريعة الإسلامية, بقدر ما تتيحه له الإمكانات.

مثلًا: يبدو أكبر تحدٍ يواجه من يرغب في تطبيق الشريعة الإسلامية في دولة لم تكن تحكم بها, هو النظام المصرفي,والتعاملات الخارجية مع الدول وفي هذا المجال لم تحرق الإمارة الإسلامية المراحل, لكنها مع ذلك منحت البنوك مهلة لتقويم أوضاعها للعمل ضمن نظام شرعي

ورغم أن المهلة قد انتهت في يونيو الماضي, ولم يحصل ما يرغب به حكام الإمارة على الوجه الأكمل, إلا أن النظام المصرفي قد خطا خطوات جيدة في هذا الاتجاه, ويحتاج الأمر إلى مزيد من الترشيد والتقويم ليصل إلى هدفه المرجو.ومثلًا: لم تخضع الإمارة لضغوط خارجية فيما يخص التعليم والمرأة وإطلاق "حريات" اجتماعية لا تتفق مع الشريعة الإسلامية, ورغم اشتراط دول غربية ومنظمات دولية انصياع الإمارة لتنفيذ أنماط معينة من النظم التعليمية والسياسية

والاقتصادية إلا أن نظام الإمارة يتمسك بمبادئه تلك مهما كلفه ذلك من مشاقٍ, وتأخير للاعتراف الدولي الشامل.

ثاني هذه الدروس، هو الاستقلال، ولقد اتسمت به حركة طالبان في زوايا مختلفة، فعلى الصعيد الفكري: للإمارة فكرها الخاص، واختياراتها الفقهية الحنفية التي تتبناها، وآراؤها التي لا تنثني أمام الضغوط بلا جمود.

والواقع أن نظام الإمارة قد حقق هذا الاستقلال قبل أن يطأ مسؤولوه أروقة الحكم في أغسطس من العام 2021م، وعن ذلك كان يُحذر تقرير سري لحلف شمال الأطلسي – وفقًا لراديو آزادي آسيا - من أن "طالبان حققت أو تقترب من تحقيق الاستقلال المالي والعسكري، والذي من شأنه أن يمكّن طالبان من تمويل تمردها دون الاعتماد على دعم من حكومات ومواطني بعض البلدان الأخرى.

", وأنها "قد تمكنت من توفير 1.6 مليار دولار في السنة المالية الماضية, التي انتهت في 20 مارس 2020"، أي أن الحركة لم تكن مدينة لأحد بأي مال، ولم تكن خاضعة لأي نفوذ أجنبي، وهي لم تزل ماضية في السياسة ذاتها بعد مرور خمسة أعوام على هذا التقرير. بل إن الارتباطات العلمية والثقافية والقبلية التي كانت تربطها بأطراف في باكستان من قبل لم تعد تمثل عليها أي تأثير سوى الاحترام العلمي لعلمائها ومدارسهم الفقهية فحسب.

ثالث هذه الدروس, هو التفرد في التجربة, والمضي بها قدمًا رغم غرابتها عن التجارب الأخرى في العالم, ولهذا؛ فلا يمكن دمغ نظام الإمارة الإسلامية في أفغانستان بأي توصيف للحكم, أكان ديمقراطيًا أم ديكتاتوريًا أم ثيوقراطيًا..

والدروس كثيرة لهذه التجربة الثرية, لكنها إشارات لتجربة فريدة من نوعها, جديرة بأن تدرسها حركات التحرر والبناء الإسلامية, وحتى غير الإسلامية, من تلك التي تريد أن تنعتق من نظام دولي ظالم غشوم, يخضع لأطراف تستنزفه وتخضعه لمسارات لا فكاك منها, فلم يخرج عنها إلا نماذج قليلة جدًا, منها نظام الإمارة الإسلامية الذي يصعد من دون أن يكون مدينًا لأحد, لا في أمنه, ولا استقراره, ولا اقتصاده. ويبني مشروعه الخاص الذي يتفرد فيه بالتفكير خارج الصندوق.

من براثن الاحتلال إلى سيادة الحكم

قراءة في منجزات الإمارة الإسلامية بعد التحرير

بقلم د. زاهد جلالي

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن تاريخ الأفغان حافل بفصول النضال والدفاع عن الوطن والعقيدة ضد الغزاة والطغاة. وتكمن عظمة هذا الشعب في موقعه الجيوسياسي الفريد، الذي جعله على مفترق طرق مراكز حضارية وثقافية كبرى. فمن الشمال، تطل أفغانستان على آسيا الوسطى، مهد أئمة المذهب الحنفي وعلماء العقيدة الماتريدية وكبار المتصوفة، والتي شهدت أيضًا غزوات مدمرة من قبل قوى مثل جنكيز خان وتيمورلنك. ومن الغرب، هناك إيران، التي كانت يوما منارةً للفقه الشافعي- والعقيدة الأشعرية قبل أن تفرض الصفوية المذهب الشيعي، مما أثر على الواقع الأمني والعسكري لأفغانستان.

ومن الجنوب والشرق، تقع شبه القارة الهندية بثقلها الاقتصادي والثقافي والعسكري. وفي هذا الخضم، كان الأفغان دائمًا أصحاب القرار في أرضهم، مدافعين عن حياضهم وشرفهم، حتى إن جنكيز خان واجه لأول مرة مقاومة شرسة في أرضهم، وكذلك تيمورلنك. وقفوا في وجه مغول الهند عندما حاول الإمبراطور جلال الدين أكبر ابتداع دين جديد، بقيادة البطل الأفغاني بايزيد الأنصاري المعروف بـ "بير روشان". كما أنهم كانوا القوة التي أنهت طغيان الصفويين تحت قيادة القائد الحكيم المتدين الحاج ميرويس خان وإبنه شاه محمود وحكمت في أصفهان نفسها. وهزموا الإمبراطورية البريطانية ثلاث مرات، وأذاقوا الاتحاد السوفيتي ثم الولايات المتحدة وحلف الناتو مرارة الهزيمة، ولكن المعضلة التاريخية الكبرى التي واجهت الأفغان كانت تكمن في عجزهم، بعد كل انتصار عسكري باهر، عن إدارة الحكم وتأسيس دولة مستقرة، مما كان له آثار كارثية على البلاد. إلا أن الانتصار الأخير على أمريكا وحلف الناتو في عام 2021 كان مختلفًا، بفضل الله ثم بحكمة القيادة الربانية لأمير المؤمنين الشيخ هبة الله آخوندزاده وتمسكه بالشريعة الغراء.

أبرز إنجازات الإمارة الإسلامية منذ استعادة الحكم

1. العفو العام الشامل:

ربما يكون هذا القرار هو الأكثر حكمةً وجرأةً في تاريخ أفغانستان الحديث. فبعد عقود من الحرب الأهلية الدامية, أصدرت الإمارة عفواً عاماً شاملاً عن كل من تعاون مع القوات الغازية أو عمل مع النظام السابق. كان القرار صعبًا على النفوس، لكنه أثبت كونه حجر الأساس في تحقيق الاستقرار والأمن ومنع الانتقامات الدموية, وساهم في لم الشمل الوطني وإتاحة الفرصة للجميع لبدء صفحة جديدة.

2. استدامة الحكم واستقلالية القرار:

على الرغم من كل التحديات الجسام - دولة مدمرة بنيتها التحتية منهكة, واقتصاد معطل، وعقوبات دولية خانقة, وحصار سياسي واقتصادي، وعدم اعتماد الموازنة على المساعدات الأجنبية كما كان سابقًا - فإن الإنجاز الأكبر بحد ذاته هو قدرة الإمارة على الحفاظ على استقرار الحكومة وإدارة شؤون البلاد باستقلالية كاملة, بعيدًا عن التبعية للأجنبي.

3. استعادة الأمن والأمان الشامل: كان انعدام الأمن سمة العهد السابق. فكانت التفجيرات والاغتيالات والاختطافات وسرقة السيارات تحدث يوميًا بمشهدية السلطات التي كانت جزءا من المشكلة أحيانا, تشير التقارير إلى أن عدد القتلى يوميا كان يتراوح بين 200 و300 شخص. اليوم, بفضل الله, يسود الأمن أرجاء البلاد, وأصبح المواطن يأمن على نفسه وماله وعرضه, وانخفضت الجريمة إلى أدنى مستوياتها, حتى إن السجون أصبحت شبه خالية من مجرمي الحق العام.

4.محاربة الفساد الإداري والمالي: كان الفساد المستشري في الحكومة السابقة مضربًا للمثل, حيث كانت المساعدات الدولية تُنهب بشكل منهجي. عملت الإمارة الإسلامية على تطبيق نظام رقابي صارم, وقامت باستعادة الأراضي والممتلكات الحكومية التي استولى عليها أمراء الحرب والفسدة, مما أعاد مليارات الدولارات إلى خزينة الدولة, وبدأت ملامح انخفاض كبير في ظاهرة الرشوة والفساد الإداري

5.القضاء على زراعة وتجارة المخدرات: في إنجازٍ أذهل العالم، تمكنت الإمارة الإسلامية من القضاء بشكل شبه كامل على زراعة الخشخاش الذي كان يغذي العالم بالمخدرات. لم تكتفِ بمنع الزراعة، بل أقامت مراكز لإعادة تأهيل المدمنين، وأزالت ظاهرة التسول والإدمان من الشوارع، وهو إنجاز إنساني وأخلاقي ضخم.

6.إصلاح النظام القضائي وإنفاذ العدالة: يعمل أمير المؤمنين شخصيًا على مراجعة كافة القوانين لتتوافق مع الشريعة الإسلامية وفق المذهب الحنفي. يتم الفصل في القضايا بسرعة وعدل دون محسوبية أو وساطة، مما أعاد الثقة في القضاء كملاذ للضعفاء والمظلومين.

7.الإنجازات التنموية والاقتصادية: على الرغم من الشح في الموارد، باشرت الإمارة بمشاريع بنية تحتية عملاقة كانت حلماً للأفغان منذ عقود، مثل:

- مشروع قوش تبة (Qosh Tepa) الكبير للري الذي سينقل المياه ويحيي آلاف الهكتارات من الأراضي الزراعية.
- بناء وتأهيل شبكة من الطرق السريعة داخل المدن وبينها، مثل الطرق في كابل.
- توقيع عقود كبرى مع شركات أجنبية للاستثمار في قطاع التعدين لاستخراج الثروات الطبيعية بشكل قانوني يخدم الاقتصاد الوطني.

8.الإصلاح التعليمي والثقافي: عملت الإمارة على:

- إيقاف المؤسسات التعليمية الأجنبية التي كانت تروج للثقافة الغربية والعلمانية، مثل الجامعة الأمريكية في أفغانستان.

- إنشاء وتشجيع آلاف المدارس الدينية التقليدية لنشر التعليم الإسلامي الأصيل ومنع انحراف الناس عن الدين الإسلامي والمذهب الحنفي.
- تأسيس جامعة إسلامية جديدة تركز على العلوم الشرعية والعصرية معًا.
- إنشاء وزارة لأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للعناية بالجانب الأخلاقي والديني في المجتمع.

9. تحرير النظام المصرفي من الربا: تسعى الإمارة جادةً لتطبيق نظام مالي إسلامي خالٍ من الربا, وهو عملية معقدة ولكنها بدأت بخطوات عملية لإنقاذ الاقتصاد من هذه المخالفة الشرعية الكبيرة .

خاتمة:

بكل المقاييس, ما حققته الإمارة الإسلامية في هذه الفترة القصيرة وفي ظل ظروف بالغة الصعوبة يعد إنجازا كبيرا بحد ذاته. لقد حولت البلاد من ساحة حرب مفتوحة ينهبها الفساد والمخدرات إلى دولة آمنة مستقلة ذات سيادة, تسير بثبات على طريق تطبيق الشريعة. بالطبع, الطريق لا يزال طويلاً أمام تحديات اقتصادية ومعيشية كبيرة, والتوقعات الدولية لا تزال مرهونة برفع العقوبات والاعتراف. ولكن الأساس المتين الذي وضعته الإمارة من أمن واستقرار وعدل هو الركيزة التي ستنطلق منها أفغانستان نحو مستقبل مزدهر, بإذن اللّٰه. فعلينا أن نتريث ونمنح القيادة الحالية الوقت الكافي هو أقل ما يمكن تقديره لهذا الشعب الذي دفع ثمناً غالياً من أجل حريته وعقيدته.

أفغانستان ومكر الأمريكان.. إلى أين..؟

د. عبدالعزيز كامل

بعد الصعود السريع لحركة طالبان في منتصف التسعينيات الميلادية .. استقبل الإسلاميون صعودها في ذلك الوقت بفتور يشوبه شعور بالريبة والاستغراب, بعدما أصيبوا بالإحباط للنهاية المأساوية لفصائل الجهاد الأفغانية, التي كانت استمرت في حرب ضد الشيوعيين وداعميهم من الروس لنحو عشر سنوات , لتنتهي بعد سقوط الاتحاد السوفييتي بتورط فصائل المجاهدين في حرب أهلية فيما بينهم , لم ينهها إلا تدخل الجيل الثاني من شباب المجاهدين من طلاب العلم, الذين أطلق عليهم من وقتها وصف(الطالبان, وكان جمهور الإسلاميين في العالم في ذلك الوقت فاقدين للثقة في غالب الحركات الأفغانية بسبب الحرب الأهلية التي نتجت عن اختلاف أجندات الداعمين من مختلف الأنظمة الداعمة بأمر أمريكا,

وهو ما أوجد فرقة في الصفوف وتنافرا في القلوب بين زعماء الفصائل، لم تفلح معه جهود الوساطة والإصلاح من كبار قادة العلم والفكر في العالم الإسلامي وقتها, ولم تكن حركة طالبان الناشئة وقتها أسعد حظًا من بقية الفصائل في طرح الثقة وفقدان الأمل.

كان لي وقتها رأي آخر، وهو أن الجيل الثاني من المجاهدين الأفغان لم يتلوث بما صار إليه الجيل الأول ، حيث كتبت حينها في (مجلة البيان) التي تصدر من لندن، سلسلة مقالات عن حركة الطالبان الناشئة التي لم تجد في البداية تفهما ولا ترحيبا، حاولت فيما كتبت وقتها إظهار الثقة وحسن الظن في هذا الاتجاه الجديد, بعد دراسة استقصائية لمسار هؤلاء الطلبة, وكنت أحاور وقتها قادتها الذين يترددون على مدينة الرياض, حيث مقر المجلة, وكان لهذه المقالات صدى في داخل المملكة وخارجها, وكانت بعنوان : (طالبان في الميزان)..ونشرت بدءا من العدد 132 لشهر شعبان من عام 1419 هجرية_ 1998 ميلادية.

كانت أمريكا قد أوعزت في ذلك الوقت لبعض الدول بأن تعترف بالإمارة الإسلامية في أفغانستان لأغراض تخصها, فاعترفت بها حكومات السعودية والإمارات وقطر, إضافة لباكستان التي وقفت بقوة في دعم هذه الإمارة, وبدأ الجهاديون من أنحاء العالم يتوافدون على الإمارة الناشئة , بعد وثوقهم في الملا عمر - رحمه الله - حيث كان سببًا في تحول تجربة الطالبان إلى (أمل المستضعفين) حقًا ؛ لازورًا كما كانت - ولازالت - دولة الكذب في إيران

وقد حاولت أمريكا الظهور بمظهر المرحب بالحركة من خلال تشجيع الحكومة الباكستانية برئاسة (بنازير بوتو) على دعم الحركة, على أمل التخلص نهائيًا من قادة الجهاد الأفغاني القدامى, بعد أن أنجزوا مهمتهم في كسر شوكة الند العنيد لأمريكا والغرب, وهوالاتحاد السوفييتي.

غير أن أمريكا ما لبثت أن انقلبت على دولة الطالبان أيضًا, بعد أن استنفدت مآربها منها في وضع نهاية للأحزاب المتناحرة بعد هزيمة الروس, وبدأ الأمريكيون يترجمون ويجدون عداوتهم لكل ماهو إسلامي, فضربوا (كابول) بصواريخ كروز في عهد بيل كلينتون, أي قبل ضربات سبتمبر سنة 2001 التي اتُهم فيها تنظيم القاعدة, وقبل مجيء جورجبوش الابن؛ الذي انتهز احداث ضرب البرجين ليشكل تحالفا دوليا, لإسقاط (طالبان/ الدولة), لكن (طالبان/ الحركة) لم تسقط, لتبدأ أطول حرب تخوضها أمريكا خارج أراضيها (عشرون سنة) وانتهت الحرب في 30 أغسطس عام 2021 , حيث سيطرت حركة طالبان على كابل بعدها بأسبوعين, فيما عده الكثيرون هزيمة أمريكية شاملة.. وعده آخرون مكيدة جديدة كاملة..

أمريكا لم تخرج طوعا من أفغانستان بلاشك.. ولكن الشك كثر في نوايا شرها لحساب ما بعد الانسحاب, وهي قطعًا لم تُرد الخير للأفغان ولا لغيرهم من المسلمين, ذلك بأن الله تعالى يقول عنها وعن أمثالها : (مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (البقرة /105)

وقد أثبتت تفاعلات ماقبل الانسحاب الأمريكي من أفغانستان أن واشنطن لم تقدم على غزو افغانستان واحتلالها, لمجرد تحقيق الهدف الهلامي المعلن وقت الاحتلال؛ وهو : (محاربة الإرهاب) لأن الأمريكيين يعلمون قبل غيرهم؛ أن حركة طالبان, ومن ورائها شعب الأفغان؛ لم يحاربوا ولم يرهبوا إلا المعتدين على بلادهم, والطامعين في نهب ثرواتهم..
سيقول البعض: وهل كان في تلك البلاد الفقيرة أي ثروة يُطمع أو مصالح يطمح في تحقيقها..؟!..
والجواب نعم؛ فأرض أفغانستان غنية بمقادير هائلة من الكنوز المعدنية التي كان يمكن أن تمكنها من أن تكون إحدى الدول الغنية, ودل على ذلك إدارة بوش الابن بدأت بعد سنوات قليلة من الغزو في القيام بعمليات بحث جيولوجي

ومسح جوي لرصد مواطن الثروات الذاخرة في أنحاء أفغانستان المحتلة, مستعينة بخرائط روسية صودرت بعد الاحتلال السوفييتي،واستكمل أوباما مهمة بوش, فلما جاء التاجر الفاجر (ترامب).. رأي عدم الاستعجال في الانسحاب, حتى تُؤَمن أمريكا وسائل السيطرة على تلك الثروات
وأدلى بتصريح نشرته صحيفة النيويورك تايمز في 26/7/2017 قال فيه(هناك مثل قديم يقول : المنتصر دائما أولى بالغنائم) !!

وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) أكدت في تقرير لها ما أكدته صحيفة الواشنطن بوست في (14/5/2010) بأن الثروات المعدنية لوحدها في أراضي أفغانستان تبلغ تريليون دولار،، بينما أكد مسؤول حكومي أفغاني لجريدة البيان الإماراتية (31/8/2010) أن الثروات المعدنية وغيرها في بلاده تقدر بنحو 3 تريليون دولار، وذكر أن فيها مخزونا من النفط يبلغ نحو 106 مليار برميل، إضافة إلى 400 مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي، ومناجم شاسعة من الذهب والنحاس والأحجار الكريمة، إضافة إلى كميات قياسية من مادة (الليثيوم) التي تستخدم في تصنيع بطاريات الحاسوب والهواتف الذكية والسيارات الكهربائية..

لقد صارت أفغانستان مطمعًا لكل طامح، حيث اتضح أن أمريكا التي كلفت حربها في افغانستان نحو تريليون دولار؛ عزمت على استردادها وأضعافها من خلال استغلال ثرواتها، لكن الصين فاجأتها وفاجأت العالم بالدخول على خط الأطماع والمنافسة على ثروات جارتها" الفقيرة" بالتوصل مع أطراف أفغانية للاستثمار في عمليات البحث عن المعادن بمليارات الدولارات، مع سعي حثيث لثبيت أقدامها على طريق تقديم الخدمات وتسهيل المصالح في أرض الأفغان.، أما روسيا؛ فبدورها؛ كانت تضع تلك الثروات المحتملة نصب عينها عندما غزت أفغانستان، إضافة إلى تطلعها للوصول للمياه الدافئة في الخليج،حيث الثروات الضخمة والأسواق المتنوعة، لكن كل ما فشلت روسيا في فعله من وراء حربها العشرية الإجراميةه تعترف بدولة أفغانستان بعد خروج أمريكا منها.

ولهذا ـ كما أرى، وكما تشير الشواهد - فإن رحى صراع قادم ضد الأمريكيين ستدور من طرف الدب الروسي والتنين الصيني والثعلب الإيراني ضد الآمال الأمريكية في أفغانستان، وذلك على خلفية الحرب الباردة الجديدة التي بدت بوادرها في الظهور على مسرح الأحداث العالمية بين الشرق والغرب، ولعل هذا سيكون أحد فصول ووجوه مكر الأمريكان لإعادة تأهيل - أو بالأحرى توريط - الإمارة الإسلامية بأفغانستان للاستفادة منها خلال الحرب الباردة القائمة، واحتمالات سخونتها القادمة. وبالطبع سيأتي دور المكر بغيرها من التجمعات الإسلامية الجهادية والسياسية، للإيقاع بها مرة أخرى في خدمة المشروعات الأمريكية.

نصر مكتوب.. وانسحاب محسوب

انتصرت حركة الطالبان حقًا على أمريكا، رغم مكرها الكُبار، وبغيها الجبار، فقد بدت الأمريكون غير قادرين على البقاء أطول من عقدين تحت مطارق الضربات الجهادية من حركة الطالبان الأفغانية، حيث أرهقت الحرب الطويلة أمريكا، بعد أن صار بقاء الاحتلال مكلفًا جدًا من الناحيتين البشرية والمالية , حيث أنفق فيها الأمريكيون أكثر من تريليوني دولار مع خسائر بشرية كبيرة، وصلت إلى مقتل 2461 قتيل أمريكي من العسكريين والمدنيين، وإصابة أكثر من 20 ألفًا آخرين، فكان أن أوصلت أمريكا لقادة الطالبان رغبتها في إيجاد حل لا يتجاهل مصالح الطرفين وبعد محطات من الجدل السياسي الداخلي في الولايات المتحدة؛

تعهد الرئيس الأمريكي دونالد ترامب خلال حملته الانتخابية (في مدته الاولى) بإنهاء الحروب الخارجية وإعادة القوات الأمريكية إلى الوطن, مما جعل للتوصل إلى اتفاق مع طالبان أولوية سياسية.

وبالفعل بدأت المفاوضات بين الولايات المتحدة وحركة طالبان في قطر, بعد أن قد قدمت الدوحة نفسها كوسيط محايد, حيث استضافت حكومة قطر في عاصمتها مكتبًا سياسيًا لحركة طالبان منذ 2013. وقد سهَّل هذا المكتب سيرالمفاوضات بين الجانبين, حيث كانت قطر منصة دبلوماسية موثوقة نسبيًا لكلا الطرفين, وبعد أن أعادت حركة طالبان تنظيم صفوفها, أبدت رغبتها في استعادة شرعيتها, وسعت إلى استعادة السلطة أو على الأقل كسب شرعية دولية من خلال استمرار التفاوض مع الولايات المتحدة, مع اشتراط خروج القوات الأجنبية من أفغانستان.وقد أسفرت المفاوضات في النهاية عن توقيع اتفاق الدوحة في 29 فبراير 2020. وقد وقّعه المبعوث الأمريكي (زلماي خليل زادة) مع المسؤول السياسي لطالبان (الملا عبد الغني برادر). وتضمن الاتفاق نقاطًا رئيسية تمثلت في عدة نقاط هامة وهي :

1- انسحاب القوات الأمريكية وحلف الناتو, حيث التزمت الولايات المتحدة وحلفاؤها في حلف شمال الأطلنطي بسحب جميع قواتهم من افغانستان (حوالي 13,000 جندي أمريكي و9600 من قوات الناتو) وذلك خلال 14 شهرًا (أي بحلول 1 مايو 2021), مع تخفيض أولي إلى 8600 جندي خلال 135 يومًا.

2- تضمن الاتفاق وقتها تعهد طالبان من جهتها بمنع تنظيم القاعدة أو أي جماعات جهادية أخرى من استخدام الأراضي الأفغانية لتهديد الولايات المتحدة أو حلفائها. كما وافقت على إجراء مفاوضات سلام مع الحكومة الأفغانية.

3- تضمن الاتفاق إطلاق سراح حوالي 5000 سجين من طالبان مقابل 1000 من قوات الأمن الأفغانية الموالية لأمريكا, وهو ما كان خطوة أساسية لفتح المفاوضات بين طالبان والحكومة الأفغانية. ولأن الطرفين (طالبان والأمريكان) كان لدى كل منهما أسرى من الطرف المقابل

لكن نتائج المفاوضات التي بدأت وانتهت في الدوحة؛ لم تؤد إلى تقدم كبير بسبب استمرار العمليات العسكرية والأمنية, مع خلافات بين المتفاوضين حول تبادل الأسرى، لكن في النهاية اكتمل الانسحاب الأمريكي في 30 أغسطس 2021, بعد تأخير عن الموعد الأصلي (1 مايو 2021). وقد كان لهذا الانسحاب تداعيات كبيرة على أفغانستان والمنطقة والعالم, حيث استعادت طالبان كامل قوتها وسلطتها, بعد أن استغلت انسحاب القوات الأمريكية لشن هجوم واسع النطاق، أدى إلى انهيار الجيش الأفغاني وسيطرة الحركة على كابل في 15 أغسطس 2021. وهو ماجعل الرئيس الأفغاني (أشرف غني) يفر مع أعضاء حكومته من البلاد, وجرت عملية إجلاء جوي كبرى من طرف واشنطن لأعضاء الحكومة العميلة وعائلاتهم, حيث أخرج الأمريكيون أكثر من 79,000 مدني، بما في ذلك 6000 أمريكي وآلاف الأفغان الذين عملوا مع القوات الأمريكية,

أمريكا ومساعي احتواء النصر

لم تطل مدة تظاهرالغرب بالرضا عن عودة دولة الطالبان, حيث اتهم مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في يوليو 2021 حركة طالبان بعدم الوفاء بتعهدها في اتفاق الدوحة, وادعت وجود أعضاء من القاعدة في 15 مدينة أفغانية, وبدا أن أمريكا التي خرجت صاغرة من الأبواب؛ تريد أن تعود مختارة من النوافذ, وظهرت أولى مؤشرات عودة أمريكا للتربص الماكر بأفغانستان؛ بعد أن صرح الرئيس الأمريكي في ( ) بأن أمريكا تريد العودة للتحكم في قاعد باجرام الجوية بافغانستان, تلك التي كان الجيش الأمريكي قد انسحب منها ضمن انسحابه من كامل تراب أفغانستان, بعد المفاوضات المضنية في قطر.

وقاعدة باجرام الجوية هذه التي تطالب أمريكا بالعودة لاحتلالها؛ تعد من أضخم القواعد العسكرية التي عرفها العالم في العصر الحديث, وهي تقع على أطراف العاصمة كابول, وقد بناها الروس السوفييت في الثمانينات لتدعيم وجودهم الدائم هنا وبعد أحداث 11 سبتمبر 2001, حين غزت أمريكا أفغانستان, لم يكن هناك خيار أفضل من باغرام, فقد وجد البنتاغون ضالته في تلك القاعدة المبنية قريبا من كابول, والقابلة للتوسعةوالتطوير, وبالفعل فقد أعادت أمريكا بناء القاعدة بالكامل, ونُصبت فيها أنظمة اتصالات وتجسس واستخبارات من الأكثر تطورا في العالم, وحولتها إلى مركز إدارة للحرب والتحكم في الطائرات المسيرة, وتنسيق عمليات الـCIA.

وبنَت أمريكا سجونا سرية في باجرام عُرفت بالوحشية والإجرام , على غرار سجون (جوانتنامو) حتى وصفت سجون باجرام بـ (جوانتنامو الشرق)..!

لكل هذا اعتبرت امريكا هذه القاعدة من املاكها التي تركتها, ريثما يأتي الظرف المناسب لاستعادتها, وبحسب نظرة المختصين في الشؤون الاستراتيجية فان قيمة قاعدة باجرام عند الولايات المتحدة تتمثل في أن موقعها يُمكن أمريكا من مراقبة إيران من الغرب وباكستان من الجنوب, والصين من الشرق وروسيا من الشمال, لهذا تريد أمريكا العودة للقاعدة , خاصة وانها..ليست مجرد معسكر, بل بوابة السيطرة على آسيا الوسطى, فقاعدة باغرام ليست مجرد موقع عسكري، بل إنها يُراد لها أن تصبح رمزًا للغطرسة الأمريكية , مثلما كانت رمزًا للغدر السوفييتي الذي دفن جنوده تحت ترابها, وهي اليوم ورقة حرب باردة جديدة, قد تُشعل فتيل التوترات مجددا بين الشرق والغرب.,

ولكل هذا اشتهرت مقولة تقول : (إن من يسيطر على باغرام, لا يسيطر على أفغانستان فقط... بل على مفاتيح نصف الكرة الشرقية)

مستقبل أفغانستان .. بين فرضيات ترامب .. ورفضيات طالبان

صرح ترامب مؤخرًا عن عزم أمريكا استعادة قاعدة باجرام, وكان ذلك في 18 سبتمبر 2025, حيث قال خلال مؤتمر صحفي مع رئيس الوزراء البريطاني (كير ستارمر) في لندن أن الولايات المتحدة " تعمل على استعادة قاعدة باجرام الجوية" في أفغانستان, التي تخلت عنها القوات الأمريكية في يوليو 2021 خلال الانسحاب من البلاد,

ووصف ترامب القاعدة بأنها "واحدة من أكبر القواعد الجوية في العالم"، مؤكدًا أن الولايات المتحدة "تريد استعادتها على الفور". كما أشار في منشور على وسائل التواصل الاجتماعي إلى أنه إذا لم تُرجع أفغانستان القاعدة، "فستحدث أمور سيئة جدًا"، دون توضيح طبيعة هذه العواقب.

في تصريحات لاحقة، ألمح ترامب إلى أن إدارته تجري محادثات مع طالبان حول هذا الأمر، مشيرًا إلى أن "طالبان بحاجة إلى أشياء منا"، مما قد يسهل التفاوض على استعادة القاعدة. ومع ذلك، لم يقدم تفاصيل واضحة عن طبيعة هذه المحادثات أو كيفية تنفيذ الخطة.

ومن الواضح أن هناك دواعي جديدة دفعت الرئيس الأمريكي للعودة بالتلويح بالتحرش بأفغانستان مجددًا، فهاجس الصين صار يسيطر على عقله ويأخذ بغالب اهتمامه، باعتبار أن قوة الصين صارت تمثل الخطر الأكبر على الأمن القومي الأمريكي، كما يكررذلك ترامب، وقاعدة باجرام تمثل أهمية عظمى لأمريكا في أي صراع أو تنافس قادم بين بكين وواشنطن، فالموقع الاستراتيجي لتلك القاعدة – كما أشار ترامب ـ يقع على بعد ساعة من المكان الذي تصنع فيه الصين أسلحتها النووية"، فهي قريبة جغرافيًا من منطقة شينجيانغ الصينية (التي تشترك بحدود قصيرة مع أفغانستان تبلغ 92 كم). ويرى ترامب أن القاعدة ذات أهمية جيوسياسية لمراقبة الصين، وهي أولوية استراتيجية كبرى للولايات المتحدة حاليًا ومستقبلاً.

وكان ترامب قد وصف الانسحاب ب الأمريكي في عهد سلفه (جوزيف بايدن) بأنه "كارثة تامة"، مشيرًا إلى أن إدارته كانت تخطط للاحتفاظ بالقاعدة لأسباب استراتيجية، وقد ألمح إلى أن طالبان تواجه أزمات اقتصادية وتحديات داخلية ودولية منذ عودتها للسلطة في 2021، مما قد يجعلها أكثر استعدادًا للتفاوض مع الولايات المتحدة بشأن القاعدة. ومع ذلك، لم يوضح ما الذي قد تقدمه الولايات المتحدة كمقابل.

وقد ترد الإمارة الإسلامية في أفغانستان على تصريحات ترامب برفض قوي قاطع، وقال المتحدث الرسمي باسم الإمارة، (ذبيح اللّٰه مجاهد): إن"استقلال أفغانستان وسيادتها خط أحمر"، وحث الولايات المتحدة على تبني سياسة "واقعية وعقلانية" والالتزام باتفاقية الدو حة، التي تنص على عدم التدخل في الشؤون الأفغانية." وقال (فصيح الدين فطرت) رئيس أركان وزارة الدفاع الأفغانية، إن "التنازل عن ولو إنش واحد من أراضينا غير وارد ومستحيل". وركز المسؤولون الأفغان على تذكير الأمريكيين بتاريخ أفغانستان في مقاومة القوى الأجنبية، مشيرة إلى فشل الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة سابقًا في فرض سيطرتها على البلاد.

ومما يجدر ذكره في نهاية هذا المقال؛ أن تلويحات وتهديدات ترامب بعزم أمريكا على استعادة منطقة من أهم وأخطر بقاع أفغانستان، تقترب من مستوى الهلوسة السياسية، البعيدة عن أي حنكة سياسية أو خبرة عسكرية، فقد أشار مسؤولون أمريكيون وخبراء عسكريون إلى أن استعادة باجرام ستتطلب جهدًا عسكريًا ي تفاصيل عن كيفية استعادة القاعدة، سواء عبر التفاوض أو العمل العسكري، مما أثار شكوكًا حول جدوى الخطة.

ويظهر بجلاء أن تصريحات ترامب تركزعلى الصين كتهديد أساسي، مما يعكس التحول في الأولويات الأمريكية من مكافحة الإرهاب " الإسلامي" إلى مواجهة القوى العظمى مثل الصين وروسيا, أما الصين نفسها؛ فقد رفضت بشدة تجدد التوتر بين الشرق والغرب, بعد تصريحات ترامب عن استعادة السيطرة على قاعدة باغرام العسكرية وأكدت أن ذلك أمر غير مقبول، وروسيا كذلك ترفض بشدة تصريحات ترامب, فقد وصف المبعوث الروسي الخاص إلى أفغانستان(زمير كابولوف) تصريحات ترامب بأنها (ضجة إعلامية" مشبهًا إياها بتصريحاته السابقة حول ضم غرينادا وكندا, وأشار إلى أن واشنطن لن تعاود غزو أفغانستان، لكنه حذر من أن أي محاولة لاستعاجة القاعدة ستكون كارثية على الولايات المتحدة, مضيفًا أن الأفغان " ليسوا غرباء عن الحرب".

ويبقى أن سنة التدافع بين الناس تجري بقدر الله نحو قضائه – سبحانه – بأن يطهر الأرض من الفساد, بدفع الناس إلى حروب, ينصر فيها أولياءه, ويخذل ويذل أعداءه, كما قال ـ جل من قائل : {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } (25البقرة/ 251)

بين فقه الأولويات وفقه التدرج

بقلم د. أمين الدميري صيدناني

ولكي لا يكون الداعي كحاطب بليل، ولكي يكون صاحب بصيرة في حركته ودعوته لابد من تحديد بيئة الدعوة أو كما أسميه "توصيف المرحلة"! فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا رضي الله تعالى عنه إلى اليمن قال له: (إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أو فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة.... الحديث)البخاري1395ومسلم 19, وفي الحديث مسائل أهمها أنه صلى الله عليه وسلم يعرّفه بيئة الدعوة وحال المدعوين؛ فهم أهل كتاب والبيئة شرك فهم من أمة الدعوة فكان أول الأولويات هو الدعوة إلى توحيد الله ثم إن الدعوة

أصلا إنما الدعوة إلى توحيد اللّٰه؛ فإن هم أجابوا صاروا من أمة الإجابة فتتوجه حينئذ الدعوة إلى مجرد الإعلام والإخبار بتعاليم الإسلام, لذا قال في أول الأمر"ادعهم" ثم "فأخبرهم" ولكل منهما دلالته ومن خلال النظر في خط سير الدعوة ومراحلها ودراسة السيرة النبوية العطرة, ومن خلال النظر في ترتيب نزول القرءان من {{اقرأ}} حتى {النصر}؛ يتبين أن الدعوة قد مرت بأربع مراحل أساسية لا تنفك عنها الدعوة في أي زمان ومكان! أولها مرحلة "السرية" ثم الإنذار والتبليغ ثم ردود الأفعال وهي مرحلة "الاستضعاف" ثم "التمكين", وقد يكون بين تلك المراحل مراحل بينية! وقد اتسمت كل هذه المراحل بالحكمة والبصيرة لأن قائدها رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم, ومحركها وملهمها هو الوحي العليم الحكيم..كما أن لكل مرحلة من هذه المراحل خصائصها وأهدافها القريبة والبعيدة؛ فالمرحلة الأولى هي التكتم والسرية والتلطف؛ قال اللّٰه تعالى: {{وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19)}}سورة الكهف؛ فالتلطف هنا والسرية هو واجب الوقت ومن فقه الأولويات.

وكان صلى اللّٰه عليه وسلم يدعو المقربين منه وأهل الثقة منهم, حتى أمر بالإنذار في قوله تعالى: {{ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }}سورة الشعراءآية 214. فالتحول من مرحلة السرية إلى الإعلان والإنذار تدرج.. ولقد بدأت الدعوة بالأهم والأساس للبنيان فالإسلام بناء قاعدته التوحيد

" لا إله إلا الله محمد رسول الله " كما جاء في الحديث (بني الإسلام على خمس..), وقد استغرق اثبات هذه القاعدة وتثبيتها قرابة عشر سنين, ثم لما استقر أمر التوحيد في نفوس وقلوب الفئة القليلة المسلمة كان فرض الصلاة وهي أول أعمدة الإسلام. وفي المرحلة المكية لم يفرض قتال لأن ميزان القوى غير متكافئ, ولأن البيت الواحد فيه مسلم وكافر, غير أن الهدف الأسمى في هذه المرحلة هو الحفاظ على النبتة الناشئة والقلة المؤمنة وترسيخ الإيمان في القلوب والتخلي عن مألوفات الجاهلية والتهيئة لقبول التشريعات والتكاليفوفي هذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها فيما ذكره صاحب التحرير والتنوير

: (كذلك شأن التشريع أن يُلقَى إلى الأمة تدريجاً كما في حديث عائشة في صحيح البخاري (أنها قالت: (إنما أُنزل أوّل ما أُنزل منه (أي القرآن) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام , ولو أنزل أولَ شيء: لا تشربوا الخمر, لقالوا: لا نترك الخمر أبداً, ولو نزل: لا تزنوا: لقالوا: لا ندع الزنا أبداً . لقد نزل بمكة على محمد (صلى الله عليه وسلم) وإني لجاريةٌ ألعَب {{بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46)}}(سورة القمر), وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده) اه): والحديث في البخاري برقم 3993 . وفي هذه المرحلة –أيضا-

كانت الأوامر والتوجيهات بضبط النفس وتحمل الاضطهاد والتعذيب وعدم رد الاعتداء وذلك من فقه الأولويات وواجب وقت المرحلة, وكان ذلك من حكمة النبي الرسول ﷺ ومن توجيهات الوحي كي تبلغ الدعوة غايتها ويتحقق الحفاظ على الفئة المؤمنة كي يشتد عودها وتستغلظ ، وفي تفسير قوله تعالى {{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ ۚ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29) }}سورة الفتح: قال الإمام الطبري: عن قتادة: (وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ) قال: هذا مثل أصحاب محمد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم في الإنجيل, قيل لهم: إنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع, منهم قوم يأمرون بالمعروف, وينهوْن عن المنكر. حدثنا ابن عبد الأعلى, قال: ثنا ابن ثور, عن معمر, عن قتادة والزهريّ(كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ) قالا أخرج نباتَه. حُدثت عن الحسين, قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد, قال: سمعت الضحاك يقول في قوله(وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ) يعني: أصحاب محمد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم, يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون ويستغلظون.)

ولما اشتد الأذى بالمسلمين كانت موضوع الساعة وواجب الوقت هو البحث عن منطلق جديد للدعوة فكانت البيعتان وكانت الهجرة وبداية مرحلة التمكين وإقامة الدولة والدفاع عنها وبدء تشريع القتال ورد العدوان وتأديب المعاندين والمتغطرسين فكانت غزوة بدر الكبرى إعمالا لسنة المدافعة وتفعيلا واستكمالا للبناء فقد جاء في حديث معاذ رضي اللّٰه عنه أن ذروة سنام هذا الدين الجهاد في سبيل اللّٰه وهو كالسقف للبناء وفيه: (...أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى رَأْسِ الْأَمْرِ, وَعَمُودِهِ, وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ فَالْإِسْلَامُ, مَنْ أَسْلَمَ سَلِمَ. وَأَمَّا عَمُودُهُ فَالصَّلَاةُ. وَأَمَّا ذُرْوَةُ سَنَامِهِ, فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ.):
سنن الترمذي2616باب ما جاء في حرمة الصلاة, وإذا كان ضبط النفس وعدم رد العدوان في مكة حكمة فإن القتال لرد العدوان ومنع أبي جهل من دخول المدينة المنورة ليرفع فيها راية هبل حكمة الحكمة وواجب الوقت وأفضل الأعمال.. ومن هنا يمكن القول بأن من الحكمة والفقه والبصيرة مراعاة طبيعة المرحلة وحال الفئة الساعية لإقامة الدين الحاملة لهمّ وتكاليف الدعوة في كل مرحلة من مراحلها؛ ففي حال الاستضعاف فإن الهدف القريب هو المحافظة على كيان الجماعة المؤمنة, وفي ذات الوقت يكون العمل وواجب الوقت هو التربية الإيمانية والصقل والتهيئة لمواجهة الصعاب وحين البأس ومواجهة أعداء الدعوة, والتنبيه لمخططاتها لوأدها وإفشالها والرد عليها, ومن ذلك مواجهة التيارات العلمانية وجحافل الغزو الفكري.. وهذ ما أطلق عليه "فقه الأولويات"؛ وهو ""تأصيل لنوعية العمل داخل المرحلة الواحدة بعد توصيفها""

وهو مبني على قاعدة " أفضل الأعمال أفضلها لوقتها"، وفي مقال للدكتور حمدي شعيب بمجلة البيان بعنوان "الأبعاد التربوية للحج" (عدد238): جاء فيه: (سُئل رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: (أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم جهاد في سبيل اللّٰه . قيل: ثم ماذا ؟ قال: ثم حج مبرور) [البخاري2/164] .

تشكِّل الآية السابقة {{ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدَالَ فِي الحَجِّ }} [سورة البقرة: 197]مع حديث رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ملمحاً يفتح للمسلم باباً عظيماً في الفقه نحن في أمس الحاجة إليه اليوم أكثر من أي وقت مضى ، وهو فقه ترتيب العقلية المسلمة , أو (فقه الأولويات), وهو ما يُعرف بفقه مراتب الأعمال حيث يتعلم منه المسلم أن للأعمال مراتب متباينة ومتفاضلة في أهميتها وفي ثوابها وفضلها, وأن لكل عمل وقتاً معيناً, وأولوية متقدمة على سائر الأعمال , وهو ما يُعرف بـ (واجب الوقت):

-وفي ذات العدد مقال "من التولي إلى الزحف" مقال للكاتب خالد أبو الفتوح: نقل عن ابن القيم رحمه اللّٰه: « فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة اللّٰه في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه » [مدارج السالكين] , وهو ما يعبر عنه آخرون بأن الإسلام عمل اللحظة الراهنة . (المرجع السابق).

-كذلك في مرحلة الاستضعاف ومع التربية الإيمانية ترسيخ عبادة الارتقاب فقد قال تعالى{{فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)}}سورة الدخان؛

فكما أن للعدو ارتقاب وسعي لهلاك الفئة المؤمنة والقضاء عليها فكذلك المؤمن له ارتقاب؛ يرتقب وينتظر ويستعد للحظة اللقاء لإعلاء كلمة الله ولكي تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وأن يكون ذلك حديث نفسه وأمل حياته...ولا بأس من ترسيخ فريضة الجهاد في قلبه وعقله دون استعماله أو تفعيله فإن ذلك يعد مخاطرة ومغامرة لا تحمد عقباها؛
فإنها في هذه الحال ستعصف بحركة الدعوة وتردها على أعقابها فضلا عن سحق الفئة المؤمنة ولله عاقبة الأمور. ومن واجبات الوقت في هذه المرحلة الانشغال بتزكية النفس والترقي بها إلى درجات الإيمان والإحسان.

وعلى القائمين على أمر الدعوة المهتمين بخط سيرها وتطورها أن يرقبوها ويرصدوا حركتها. وهنا لابد من التجرد والإخلاص والتخلي عن الانتماء للأحزاب والجماعات والأهواء, والتخلص من العقد النفسية , وألا يكون قرار الانتقال من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين ومحاولة الخروج من حال الذل والانكسار قرارا عفويا أو حماسيا أو انتقاميا, أو أن يكون رد فعل لموقف عارض تم فيه استفزاز مشاعر الناس!!
ففي مرحلة سابقة على الهجرة المباركة وقد اشتد الأذى بالمسلمين ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوسد بردة عند الكعبة يأتيه خباب بن الأرت رضي الله عنه ويشتكي ويقول: ألا تدعو الله لنا ألا تستنصر لنا .

وفي قصة بيعة العقبة الثانية(..قال النعمان بن حارثة رضي اللّٰه عنه: أبايع اللّٰه يا رسول اللّٰه وأبايعك على الإقدام في أمر اللّٰه لا أراقب فيه القريب والبعيد فإن شئت واللّٰه يا رسول اللّٰه ملنا بأسيافنا هذه على أهل منى فقال النبي صلى اللّٰه عليه وسلم : لم أومر بذلك) دلائل النبوة:
المؤلف : أبو نعيم أحمد بن عبد اللّٰه بن أحمد الاصبهاني (المتوفى : 430هـ)جزء1ص264
-وفي تفسير قوله تعالى{{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77)}}
سورة النساء؛ ذكر الآلوسي في روح المعاني:
({ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ } نزلت كما قال الكلبي في عبد الرحمن بن عوف الزهري والمقداد بن الأسود الكندي وقدامة بن مظعون الجمحي وسعد بن أبي وقاص كان يلقون من المشركين أذى شديداً وهم بمكة قبل الهجرة فيشكون إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ويقولون: ائذن لنا يا رسول اللّٰه في قتال هؤلاء فإنهم قد آذونا والنبي صلى اللّٰه عليه وسلم يقول: كفوا أيديكم وامسكوا عن القتال فإني لم أومر بذلك ، وفي رواية : إني أمرت بالعفو . وقوله{ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَءاتُواْ الزكواة }.

وفي ذلك إشارة واضحة قوية وتوجيه إلى أنه في هذه المرحلة من الدعوة كان واجب الوقت والأولى هو الإمساك وكف الأيدي وضبط النفس، ثم لما تهيأت الظروف وكانت بيعة العقبة الثانية وصار للمسلمين أنصار كان قرار الانتقال من حالة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين هو الفقه بعينه؛ وهو مثال لما نسميه "فقه التدرج". والتعريف المختار أنه تأصيل لفقه – أو قرار- الانتقال من مرحلة إلى أخرى(انظر " خصيصة التدرج في الدعوة إلى اللّٰه" للكاتب رسالة " ماجستير" كلية أصول الدين جامعة الأزهر 2004طبع دار الفكر العربي). وعلى ما سبق بيانه وتبيانه فأن قرار الانتقال من مرحلة السرية إلى الإعلان في بداية الدعوة من فقه التدرج وكانت له أسبابه ومبرراته، ومنها إسلام عمر رضي اللّٰه عنه وساعتها: (كبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد قلت: يا رسول اللّٰه ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال: بلى والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متم وإن حييتم قال: فقلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن، فأخرجناه في صفيْن حمزة في أحدهما وأنا في الآخر له كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إليّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها فسماني رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم الفاروق وفرق بين الحق والباطل »: (روح البيان: إسماعيل حقي تفسير الآية 155سورة الأعراف). كذلك فإن قرار الانتقال من الاستضعاف إلى التمكين وإقامة الدولة والدين كانت له أسبابه ومبرراته ووقته المحتم! وهو من فقه التدرج.. هذا ولا تزال إشكالية التطبيق محل بحث وخلاف بين المتخصصين، وموضوع الخلاف هو هل يؤخذ –عند التطبيق-

بالحكم النهائي أم بالحكم المرحلي!؟ فعلى سبيل المثال مسألة تحريم الخمر فمعلوم أن تحريمها مر بمراحل (حسب ترتيب المصحف كما في سورة البقرة ثم سورة النساء ثم المائدة..) فالحكم في سورة النساء مرحلي {{لا تَقْرَبُوا الصلاةَ وأنْتُم سُكارى}}[النساء: 43],مع أنه حكم نهائي لمن مات من الصحابة بعد نزول هذه الآية وقبل نزول سورة المائدة! لذا لما طرحت هذه القضية وقالوا ما بال من ماتوا قبل تحريم الخمر وكانوا يشربونها؟!
ساعتها نزل قوله تعالى{{ { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } المائدة93 (وفيها فائدة أهمية معرفة أسباب النزول؛ فإن البعض فسرها أنه لا جناح عليه إن أكل أوشرب حراما كان أو حلالا مع وجود التقوى وهو فهم خاطئ واهم).
وكان حكم سورة المائدة حكما نهائيا في قوله تعالى{{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }} [المائدة: 90]}}؛ فعند التطبيق هل نأخذ بالحكم المرحلي وصولا إلى الحكم النهائي ونقيم مصحات لعلاج المدمنين (وفيها يتم إعطاء المدمن جرعات متناقصة من الخمر أو المخدر), أم نأخذ بالحكم النهائي وتُمنع الخمر دفعة واحدة وقانون واجب التنفيذ في الحال!!
في خاتمة هذا المقال أوصي العاملين في حقل الدعوة بدراسة طبيعة المرحلة وتوصيفها لتحديد الوسائل والأساليب

ووضع المناهج والأهداف المناسبة لكل مرحلة, وأحيل هذا الأمر للإجتهاد الجماعي ولا يستقل به شخص دون شخص ولا جماعة ولافئة دون أخرى! لقد عنى القرءان الكريم بهذه القضية أيما عناية واهتمام؛ فقد أشار القرءان الكريم إلى حالتين ومرحلتين من مراحل الدعوة؛ الأولى حال الاستضعاف وانعدام التمكين وإرادة تحقيقه فيرسم لنا الطريق وذلك في قوله تعالى {{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }} سورة النور آية 55, وأما الحالة الثانية وهي حال التمكين فيبين لنا واجب الوقت وتكاليف المرحلة في قوله تعالى: {{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}}: [سورة الحج 41]؛ وعليه فليست كل الأعمال أفضل أو أنفع في كل الأوقات

وإنما لكل مقام مقال ولكل وقت آذان, وما أحوجنا والأمة تمر بمرحلة من أصعب مراحلها, وكما يقال فإن حال الناس من حال دعاتهم, وقد ابتلينا بأصناف من الدعاة -تحمل الدعوة همهم ولا يحملون همها وهم عبء عليها- لا يفرقون بين المراحل وهم حاطبون بليل وينشغل بعضهم حال غياب الدين وحكم الإسلام بالرقاق وتعدد الزوجات ويغفلون عن قضية التوحيد ومقتضياته ونواقضه والقضية الأم والأساس وهي {{ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ }}سورة الشورى آية13 .. واللّٰه الموفق والهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

حكم الاستعانة بغير المسلمين على حرب المسلمين

اختلف العلماء في مسألة الاستعانة بالمشركين في القتال:
قال الحنفية والشافعية والحنابلة في رواية والمالكية في رواية بالجواز, وقال المالكية في المعتمد عندهم والحنابلة في الصحيح من المذهب بعدم الجواز, واشترط الحنفية والحنابلة أن تكون الحاجة داعية إليه, واشترط الشافعية أن تؤمن خيانته وأن يعرف حسن رأيه في المسلمين، واشترط آخرون من أهل العلم أن يكون مع الإمام من يستقل بهم فى إمضاء الأحكام الشرعية على الذين استعان بهم ليكونوا مغلوبين لا غالبين.

** واستدل الجمهور على الجواز بالآتي:

1- عن ذي مخبر رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ستصالحون الروم صلحا آمنا وتغزون أنتم وهم عدوًا من ورائكم) (صحيح رواه أبوداود وصححه الألباني في صحيح الجامع).

2- عن الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم استعان بناس من يهود خيبر في حربه فأسهم لهم. (اسناده متصل: رواه سعيد بن منصور في سننه, وأبو داود في مراسيله, والحديث رجاله ثقات)

3- ما رواه البخاري (أن قزمان خرج مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وهو مشرك فقتل ثلاثة من بني عبد الدار حتى قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) .

4- أن النبي صلى الله عليه وسلم استعان في غزوة حنين بصفوان بن أمية وهو مشرك (إسناده متصل: رواه أبو داود وابن أبي شيبة والدار قطني)

** واستدل المانعون بالآتي:

1- روى أحمد ومسلم عن عائشة أن رجلاً اتبع رسول الله صلى الله عليه فقال: أتبعك لأصيب معك, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تؤمن بالله ورسوله؟) , قال: لا, قال: (فإنا لا نستعين بمشرك), قال: فقال له في المرة الثانية: (تؤمن بالله ورسوله), قال نعم, فانطلق فتبعه).

1- وروى النسائي: عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تستضيئوا بنار المشركين, ولا تنقشوا على خواتيمكم عربيًا) (رواه النسائي وهو ضعيف).

2- وفى الطبقات الكبرى لابن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجل فقال ما هذا ؟ قالوا حلفاء بن أبي من يهود, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك).

1- قال ابن هشام : وذكر غير زياد عن محمد بن إسحاق عن الزهري: أن الأنصار يوم أحد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فقال (لا حاجة لنا فيهم) (سيرة ابن هشام).

وقد رجح بعض العلماء القول بالمنع, منهم الإمام الشوكاني, حيث قال:(والحاصل أن الظاهر من الأدلة عدم جواز الاستعانة بمن كان مشركًا مطلقً, لما في قوله صلى الله عليه وسلم: (إنا لا نستعين بالمشركين) من العموم, وكذلك قوله: (أنا لا أستعين بمشرك), ويؤيد هذا قول الله تعالى: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) [النساء: 141], وقد أخرج الشيخان عن البراء قال: (جاء رجل مقنع بالحديد فقال: يا رسول الله أقاتل أوَ أُسلم؟ قال: أسلِم ثم قات, فأسلَم ثم قاتل فُقُتل, فقال صلى الله عليه وسلم: عمل قليلا وأجر كثيرا)) (نيل الأوطار).ويمكن الاعتماد على ترجيح المنع بما يأتي :

ا- قوله عزوجل: ((لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)) (التوبة:47).

أي لأوضعوا الاختلاف فيكم أو شرعوا في تفريق جمعكم.
ب- أن أخبار جواز الاستعانة وآثارها ضعيفة لا تقاوم الأحاديث الصحيحة في المنع.
ج- القاعدة الفقهية المشهورة: (دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح) فالاستعانة بالكفار في قتال الكفار مفاسدها لا تخفى فتدفع, ولو أدت إلى جلب مصلحة للمسلمين مظنونة أو متوهمة, واليقين يقدم على الظن.

والذين قالوا بالجواز وضعوا شروطًا وضوابط أجملها الدكتور محمد عثمان شبير في الآتي:

1- أن تتحقق المصلحة من المستعان بهم.

2- أن يكون المستعان به مأمونا حسن الرأي في المسلمين، ولذا لا تجوز الاستعانة بمن عرف بالغدر والخيانة والتجسس على المسلمين، ونقل عوراتهم إلى غير المسلمين.

3- أن يكون المسلمون ذوي قوة ومنعة بحيث لو انضم المستعان بهم إلى الكفار الحربيين لأمكن مقاومتهم.

4- أن لا يستعان بهم في قتال البغاة المسلمين.

1- أن يكون المستعان به على خلاف أكيد مع العدو.

2- أن لا يترتب على الاستعانة بهم التنازل عن المبدأ والعقيدة وما هو ثابت في الإسلام.

3- أن لا يترتب على الاستعانة بهم موالاتهم.

4- أن لا تؤدي الاستعانة بهم إلى المقاتلة تحت رايتهم، والانضواء تحت إمرتهم: ((وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)) (النساء: 141).

مسألة الاستعانة بأهل الذمة :

الاستعانة بأهل الذمة على قتال الكفار والمشركين ينسحب عليه حكم المسألة السابقة نفسها؛ لأنهم كفار، ودخولهم في عقد الذمة لا يعني رفع حكم الكفر عنهم.

تنبيه:

هذه المسألة تفترق عن النازلة التي نحن بصددها في أمرين:

1- الأول: أن مسألة الاستعانة بأهل الذمة التي بحثها العلماء هي الاستعانة بهم على حرب الكافرين لا على حرب المسلمين.

2- أن الدول الغربية كأمريكا وبريطانيا ليسوا أهل ذمة؛ ومن ثم فإنه لا يصح أن نسحب حكم مسألة الاستعانة بأهل الذمة على النازلة المعاصرة.

مسألة الاستعانة بأهل الشرك على أهل البغي :

جمهور العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية على أنه لا يجوز أن يستعان بالكفار على أهل البغي من المسلمين.

أما الحنفية فلهم تفصيل في هذه المسألة, وهو أنه إن كان لأهل العدل حاجة إلى الاستعانة بهم وكان حكم الإسلام هو الظاهر جاز وإلا لم يجز.

تعريف البغاة:

هم الخارجون من المسلمين عن طاعة الإمام الحق بتأويل ولهم شوكة.

وقد وضع العلماء لتحقق البغي شروطًا هي:

1- أن يكون الخارجون على الإمام جماعة من المسلمين لهم شوكة وخرجوا عليه بغير حق لإرادة خلعه بتأويل فاسد.

2- أن يكون الناس قد اجتمعوا على الإمام وصاروا به آمنين.

3- أن يكون الخروج على سبيل المغالبة.

تنبيه:

ومن تأمل التعاريف السابقة والشروط وألقى نظرة فاحصة في ضوئها على النازلة المعاصرة فسيجد فرقًا جوهريًا, وهو أن أهل البغي يخرجون على إمام شرعي تجب له بمقتضى البيعة من المسلمين كافة, بخلاف ما يشبه ذلك من االنوازل المعاصرة.

4_ التكييف الصحيح للنازلة

الأصل في النظام السياسي الإسلامي أنه قائم على وحدة الأمة وواحدية الإمام.

ولكن قد تمر الأمة الإسلامية بظروف, ينتج عنها تمزق المسلمين إلى دول, فتتعدد البلدان الإسلامية, ويتعدد الحكام, وربما نتج عن هذا التعدد وقوع الاختلاف والقتال بين المسلمين؛ وقد يترتب على هذا أن تستعين إحدى الدولتين المتحاربتين على الأخرى بدولة من دول الكفر.

والدولة الإسلامية التي تبغي على دولة إسلامية أخرى تسمى باغية, وأهلها أهل بغي,

قال الله تعالى ((وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)) (الحجرات:9).

الحكم الشرعي للنازلة

لكي نخرج بالحكم الشرعي الصحيح لهذه النازلة التي قد تختلف فيها الأنظار, بما قد يفرق القلوب والصفوف؛ نسوق المقدمات الآتية:

أولا: إذا كان العلماء تشددوا في مسألة الاستعانة بأهل الشرك على أهل البغي أكثر من التشدد في مسألة الاستعانة بأهل الشرك على أهل الشرك ؛فان هذا الاتجاه منهم يدعونا للتشديد أكثر في استعانة بلاد إسلامية بالمشركين على بلاد إسلامية أخرى.

1- أن الذي دعا العلماء للتشدد في مسألة الاستعانة بأهل الشرك على أهل البغي هو أن القصد من قتال أهل البغي هو كفهم, أما قصد أهل الشرك فهو قتل المسلمين.

2- أن الشرط الذي وضعه الأحناف, الذين تفردوا بالقول بالجواز.

هو ألا يكون حكم الشرك ظاهرًا, فقالوا (إن ظهر أهل البغي على أهل العدل حتى ألجؤوهم إلى دار الشرك فلا يحل لهم أن يقاتلوا مع المشركين أهل البغي؛ لأن حكم أهل الشرك ظاهر). وهذا الشرط الذي شرطه الأحناف, مع هذه الصورة التي فرضوها لتحقق هذا الشرط؛ يدعونا إلى القول باتفاق المذاهب الخمسة (الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية) على منع الاستعانة بدولة كافرة على طائفة أو بلد مسلم

ثانيا: أن الشروط التي وضعها العلماء القائلون بالجواز سواء في مسألة الاستعانة بالمشركين والذميين على المشركين أو في مسألة الاستعانة بالمشركين والذميين على أهل البغي من المسلمين ؛ هذه الشروط غير متحققة في النازلة المعاصرة.

ومن خلال عرضنا للنازلة المعاصرة؛ نذكر بالشروط التي اشترطها العلماء القائلين بجواز الاستعانة بالمشركين ونقيسها على النازلة المعاصرة:

1- أن تكون الحاجة داعية إلى هذه الاستعانة.

2- ألا يكون حكم الشرك هو الظاهر.

3- ألا تكون للكفار شوكة ومنعة وراية مستقلة يقاتلون تحتها.

4- أن يعرف حسن رأيهم بالمسلمين وعدم خيانتهم لهم.

5- أن لا يحصل من المستعان بهم ضرر بالمسلمين.

هذه الشروط التي اشترطها الفقهاء, لجواز الاستعانة بالمشركين, وقد اشترطوها في صور إن قيست بالنوازل المعاصرة الشبيهة؛ لكانت النازلة أولى منها بهذه الشروط؛ لذلك نستطيع أن نجزم بأن النوازل المعاصرة الشبيهةالتي استعانت فيها

بعض الدول على مسلمين - ولو بغاة؛ لم يتوافر فيها شرط واحد من هذه الشروط , فمن المستحيل أن نجد للقول بجوازها أصلا في المذاهب الفقهية.

ثالثا: لو أننا تنزلنا كل التنزل، وفرضنا برغم ما تقدم صحة القول بالجواز، فإن هذا الجواز محكوم ولا شك بقواعد السياسة الشرعية، بفقه الموازنة بين المصالح والمفاسد، وبفقه النظر إلى مآلات الأفعال؛ لأن هذه المسألة من المسائل الكبار المتعلقة بالشأن العام للأمة الإسلامية.

ولا يستطيع أحد يسمع ويرى ويعقل، ويتابع دون عناء ما يجرى على الساحة العربية وغيرها في العقود الأخيرة أن ينكر أنمسألة الاستعانة بالكفار على المسلمين من مبدئها إلى منتهاها

مؤامرة على الأمة الإسلامية، ومصالحها ومكاسبها في جانب اليهود والصليبيين، ومفاسدها وشرورها وخسائرها في جانب المسلمين عامة وعلى المستعان عليهم بصفة خاصة.

رابعا : هناك موانع عقدية تحول دون استعانة المسلمين بالدول الكافرة المحاددة والمشاقة لدين الله عزوجل، خاصة إذا عرفت هذه الدول بحقدها على الإسلام والمسلمين، ومن هذه الموانع: عقيدة الولاء والبراء

التي تحجز المسلمين عن الركون إلى الكافرين وعن اتخاذهم بطانة وعن مناصرتهم أو الاستنصار بهم وعن مودتهم وتقريبهم:

قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) [المائدة: 51].

وقال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)) [الممتحنة: 1].

وقال سبحانه: ((لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ)) [آل عمران: 28].

وقال: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)) [آل عمران: 118].

ومما تقدم يتضح لنا أن حكم الاستعانة بالدول الكافرة على حرب المسلمين هو التحريم.

لماذا كان التاريخ ضرورة..؟

أ.د. محمد أمحزون

إن أكبر دليل على أهمية علم التاريخ ما ورد من أخبار تاريخية في القرآن الكريم. إذ قص الله جل ذكره علينا في كتابه العزيز أخبار الأمم الماضية. وفي ذكر أخبارها عظة وعبرة وتهذيب للأمة الإسلامية كي تتأسى بتلك الأمم فيما أثنى الله تعالى به عليها, وتنتهي عما كان سببا في هلاكها ودمارها. قال تعالى:]لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب[[يوسف: 111].

وفي هذا السياق أشار القرآن العظيم إلى السنن التاريخية, وقدم تلخيصا وافيا ودقيقا عنها, حيث نبه المسلمين إلى أهمية التعرف عليها بعرضه لقصص الأمم السابقة, للإفادة منها في الاعتبار, وبناء الحضارة, وكيفية المحافظة عليها من السقوط, فقال تعالى:]قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين[[آل عمران: 137].

ومن التنبيه بمكان أن معرفة نظام السنن بصورة صحيحة هو الطريق الوحيد المأمون إلى:

* تفسير حركة التاريخ تفسيرا شمولياً وصحيحاً.

* تحديد موقع الإنسان في هذا الوجود ودوره وقيمته بين مكوناته المختلفة.

* رد كل حادثة تاريخية وكل ظاهرة اجتماعية إلى سببها الطبيعي الشرعي.

* إبراز حكمة الله تعالى من وراء خلق هذا الوجود, وجدية الحياة, وخلوها من العبث, وثبات سننها وصرامتها واطرادها.

وليست الحاجة اليوم إلى التثبت من الأخبار وتوثيق النصوص التاريخية الإسلامية, بأقل من الحاجة إلى باقي العلوم الاسلامية كالتفسير والحديث والفقه. ذلك أن معظم البدع التي لا تزال حية في الأمة, إنما ترتكز على تزوير تاريخي, وتدليس في رواية أحداث صدر الاسلام خاصة, مما لا يدع مجالا للشك بأن التوعية التاريخية ضرورة لابد منها لاكتمال التوعية الشرعية والرؤية السليمة للأحداث, علما بأن تاريخ الاسلام خاصة في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين هو التأريخ التطبيقي للإسلام عقيدة وشريعة.

ولأجل ذلك, ينبغي الاستفادة من دراسة التاريخ الإسلامي في مجال التربية والقدوة الحسنة.

ويرجع ذلك إلى اعتبارات وعوامل عدة منها:

الأول: أهمية عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين, حيث قوي تأثير العقيدة في دوافع سلوك المسلمين ومواقفهم من ناحية, ولأهمية تاريخ صدر الاسلام الذي يمثل التطبيق الصحيح لتعاليم الاسلام الكاملة الشاملة من ناحية أخرى.

إذ هو الصورة النموذجية والمثال الذي يجب على مجتمعاتنا الاسلامية المعاصرة أن تسعى للوصول إليه.

الثاني: إن المسلمين اليوم أشد ما يكونون في حاجة إلى معرفة فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأثر تربيته عليه الصلاة والسلام فيهم، وما كانوا عليه من علو الهمة التي صاروا بها الجيل المثالي الفذ في تاريخ البشرية. وفي ذلك تنبيه لهم ليحسنوا القدوة، ويكونوا خير أمة أخرجت للناس، حتى يتهيأ لهم إنقاذ العالم المعاصر من دركات الحيرة والتيه والضياع، وترشيده إلى خيري الدنيا والآخرة.

الثالث: دراسة التاريخ وفق منهج علمي صحيح، منبثق من التصور الاسلامي والعقيدة الصحيحة، وتفسيره تفسيرا يتطابق مع النظرة الاسلامية للكون والانسان والحياة، ونشأة الانسان، ومركزيته في هذا الكون بأن سخر الله تقدست أسماؤه له ما في السماوات وما في الأرض، ووظيفته، وغاية وجوده على سطح هذا الكوكب، ومصيره الذي ينتهي إليه.

تداعي الأمم على خير الأمم

عُلم من وحي النبوة؛ أن مما كُتب منذ الأزل قدرًا، أن تتداعى أمم الكفر على أمة التوحيد على في آخر الزمان جبرًا وقهرًا، ومع أن من المسلَّمات أن أمة الإسلام بوجه عام هي خير أمة، وأن أهل السُّنة هم خير هذه الأمة؛ فإن من قَدَر هؤلاء الأخيار أن يكونوا - رغمًا عنهم أو باختيارهم - في مواجهة أمم الكفار وأئمة الفجار، الذين يتناوبون التكالب والتكتل ضدهم، ويتبادلون الإغارة والعدوان عليهم، اختبارًا لهم وتمحيصًا لصفوفهم ورفعة لدرجاتهم،

(ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم).

إن مرحلة حكم الجبرية التي نعيشها والممتدة منذ قرن مضى، تدلل على هذه الحقيقة, فعند التأمل نرى أن غالبية العالم الإسلامي هم بسطاء عوام, لايدركون أبعاد وقوعهم تحت الحصار منذ أكثر من مائة عام, ولا يستوعب أكثرهم أنهم وُضعوا في مركز الاستهداف من كل الأمم, مصداقًا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان واضحًا في وصف مطامع أعدائهم فيهم, عندما قال عليه الصلاة والسلام: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم, كما تداعى الأَكَلَة إلى قصعتها», فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير, ولكنكم غُثاء كغُثاء السيل, ولَيَنزِعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم, وليقذفن الله في قلوبكم الوَهَن», فقال قائل: يا رسول الله, وما الوَهَن؟, قال: «حبُّ الدنيا وكراهية الموت»[1].

فأمة الإسلام بوجه عام, وأهل السنة بوجه خاص, يتداعى عليهم أعداء كُثر من أمم

عديدة, لكل منها مشروعاتها وطموحاتها وأطماعها ومطامعها,وهؤلاء التداعي على المسلمين أصنافه عديدة :

أولها: تداعي العالم «المسيحي» بفروعه النصرانية الثلاثة:

- البروتستانتية بقيادة أمريكا, ومن ورائها بريطانيا وكندا وأستراليا, ونيوزلندا وألمانيا.
- الكاثوليكية بقيادة فرنسا وإيطاليا ومعها غالب بقية أوروبا.
- الأرثوذكسية بقيادة روسيا, ويتبعها النصارى في دول كثيرة في آسيا وإفريقيا.

([1]) أخرجه أبوداود (4297), وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

ثانيها: تداعي اليهودية العالمية:

التي تتمثل في اليهود المستوطنين غصبًا أرض فلسطين، ووراءهم جبهات اليهود في العالم الغربي والشرقي، ومِن وراء هؤلاء القوى الداعمة, الخشنة والناعمة, من صهاينة النصارى وصهاينة العرب, الذين يقدمون لمشروع اليهود الدعم الشامل بلا قيود, ويستميتون في ضمان أمنهم بلا حدود, هذا بالإضافة لقوى (الماسونية العالمية) الجامعة بين حثالة كل الأجناس، لخدمة شرار الخلق وأخبث الناس، فقوى الماسون في أبسط معانيها, تمثل توظيف جهود غير اليهود لخدمة أهداف اليهود.

ثالثها: تداعي الفُرس الإيرانيين من الشيعة وأشياعهم عربًا وعجمًا:

وكانوا قد كوَّنُوا منذ اندلاع ثورة الرافضة جبهة إقليمية وتحالفا موحدًا ضد المسلمين من أهل السُّنة, فاستطاعوا بمشروع نجس متجانس أن يخترقوا أربع عواصم عربية, ويسعون للمزيد, وفق أحلام توسعية لاستعادة "أمجاد" الإمبراطورية الفارسية, على حساب الشعوب السُّنية, وبخاصة العربية.

رابعها: تداعي الوثنيين من الهندوس والبوذيين وغيرهم :

وصراع الهندوس مركوز ضد المكَوِّن الإسلامي في القارة الهندية, وهو البالغ نحو (150) مليون نسمة, وقد دعت الحكومة الهندية مؤخرًا لسلب الجنسية منهم, بغرض فرض الوصاية عليهم. ويدخل في دائرة التداعي الوثني صراع البوذية الصينية , وساحتهم في الصراع ضد المسلمين موجه ضد سكان مقاطعة «كينج سيانج» في غرب الصين، و الذين يعيشون حالة

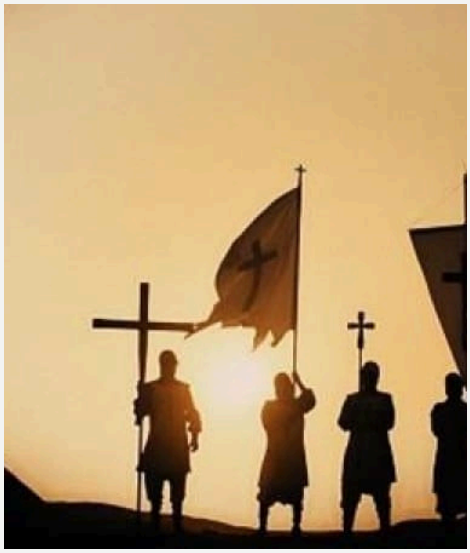

تشبه الاعتقال الجماعي في مدن مغلقة, وقد فتح اتفاق التحالف الإيراني الصيني المبرم مؤخرًا, ردم السور الافتراضي العازل بين المسلمين وبلاد التنين.

سادسًا:تداعي عصبة المنافقين العلمانيين، الموزعين داخل صفوف المسلمين: وهؤلاء هم أس البلاء وموطن الداء وأخطر الأعداء, كما قال الله تعالى { هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون}

[المنافقون:4].

فهم يمثلون قطعان الطابور الخامس من المحسوبين على المسلمين, ليكونوا صفًا إضافيًا داعمًا للمتداعين, بأموال وأملاك وأرواح المسلمين.

هل نحن حقًا ضعفاء؟

والجواب على ذلك؛ أنه لولا أن في الأمة مواضع قوة وبأس, ومواطن ثراء وغناء, وأن لديها – في حال نهضتها- كامل القابلية لاجتياح حصون الجاهلية؛ لَما اجتمعت على قصعتهم سباع الأرض وضباعها, فالحركة والنهوض - كما تقول قواعد المنطق - قد يكون بالقوة أو يكون بالفعل, فالطفل الصغير مثلًا, ناطق بالقوة, لوجود مؤهلات النطق فيه عندما يكبر, وعند كبره يكون نطقه بالفعل, وهكذا يتميز الإنسان عن الحيوان في قواه العقلية والنفسية والحركية, فتكون بالقوة المفترضة

أولًا, ثم بالفعل المتحقق تاليًا.
والمسلمون عامة, وأهل السنة خاصة, يملكون كل عوامل القوة «بالقوة», وهذه تتحول إلى قوى كثيرة وكبيرة وخطيرة, عندما تتوافر بالفعل عوامل «الفعل».
وليقين أعدائهم بتوافر عوامل قوتهم إذا اتحدوا؛ فقد صاغوا النظريات وطرحوا الأطروحات, لكيفية مواجهتهم لإضعافهم بالقوة قبل الفعل, ومنع عوامل عودتهم ونهضتهم, وهم يخوضون حقًا «صراع حضارات» ضدهم.
ويأتي التكتل الصليبي العالمي، المتحكم في النظام الدولي، والمتحالف مع الصهيونية العالمية, ليمثل القطب الرئيس من قوى الصراع فيما أسماه «صمويل هنتجنتون» اليهودي: «صدام الحضارات» فحتى هاجس تحالف الأعداء, أو تنافسهم, أو تصادمهم, مع حضارات أخرى، ليس إلا للحؤول بين العالم الإسلامي وبين عودته إلى دوره الريادي والقيادي، لأن عالم المسلمين يملك في الحقيقة أقوى مقومات وعوامل القوة ورافعات النهضة, التي لو أزيلت من أمامها الحواجز والعقبات؛ لكانت الأمة -كما كانت - في مقدمة الركب, وفي طليعة صُناع الحياة التي لأجلها خلق الموت والحياة.

عوامل القوة في نهضة الأمة :

أولًا: المنهجية الاعتقادية الفطرية المتماسكة, التي تعبِّر, أو ينبغي أن تعبِّر, عن الهوية الإسلامية, الجامعة لشعوب العالم الاسلامي برابطة أخوة الدين، التي تمثل أساسًا متينًا, وقاعدة صلبة, يمكن أن تُبنى عليها وحدة الضمير والشعور, والتي تُقاس بها حقائق الأمور. ومع العقيدة الواحدة الموحِّدة, فالمسلمون بينهم لسان عام مشترك, قابل للتفاهم والبيان، يتمثل في لغة القرآن، التي يتعلمها النَّشْءُ عربًا وعجمًا, ليتعلموا من خلالها ما تصح به عقيدتهم وعبادتهم, وإن اختلفت ثقافتهم وتباينت لهجاتهم.

ومما يُضاف لعوامل القوة المنهجية: وجود نموذج معياري حقيقي، جسَّد قيم الأمة بعد عصر النبوة، وهو المتمثل في أجيال ثلاثة مختارة، هي أجيال السلف الكرام، الذين مثلوا نَموذجًا تطبيقيًا لإقامة الدين وعمارة الدنيا به، من خلال تأسيهم بخاتم المرسلين، صلوات اللّٰه وسلامه عليه إلى يوم الدين.

ثانيًا: أن العالم الإسلامي السني يمثل قوة ضخمة، من حيث عدد سكانه، ومجموع دوله، ومساحة أراضيه التي تبلغ (32) مليون كلم2، ومع أننا لا نعوِّل ابتداء على الكثرة العددية دون النظر للكيفية التي هي عليها، فإن تلك الكيفية إذا أُحسنَ توجيهها ستجعل للكَم العددي أعظم قيمة، وقد رجحت دراسات علمية أجراها مركز «بيو» الأمريكي لأبحاث الشعوب، أن عدد المسلمين وعدد "المسيحيين" حول العالم، سيتساوى بحلول عام (2060م)، إذ سيبلغ أتباع كل من الديانتين ثلاثة مليارات نسمة.

وحاضرًا، يبلغ عدد "المسيحيين" (2.3) مليار شخص، فيما يبلغ عدد المسلمين (1.8) مليار شخص، وفقًا للمركز المذكور، وهو قابل للزيادة والتضاعف، فالمسلمون ليسوا قلة

بل هم كثير، لكن قلتهم في غثائيتهم وتفرقهم، وقد عزَت الدراسة تضاعف عدد المسلمين خلال أربعة عقود إلى أن مجتمعاتهم أكثر شبابًا، وينجبون أطفالًا أكثر من المسيحيين، وعلى عكس الانطباع السائد بأن غالبية المسلمين تتركز في منطقة الشرق الأوسط، فإن الأرقام تشير إلى أن الغالبية ستتركز في كل من: الهند، وباكستان، ونيجيريا، وإندونيسيا، وبنغلاديش، وتركيا، وإيران، وأفغانستان.

وبحسب توقعاتهم، فإن الانتشار الواسع للإسلام، سيظهر أثره على أوروبا، حيث سينخفض فيها عدد السُكّان المسيحيّين من (553) مليونًا إلى (454) مليونًا. كما أن عدد المسيحيين في الولايات المُتّحدة الأمريكيّة سينخفض من ثلاثة أرباع عدد السُكّان إلى الثلثين، في عام (2050م)، ويعود سبب نموّ عدد المسلمين في العالم - كما تقول الدّراسة- إلى نسبة الشّباب الكبيرة بين السُكّان، وارتفاع مُعدّلات الولادة عند المسلمين، حيث تبلغ نسبة مُعدّلات الولادة عند المرأة المسلمة (3,1) ولادات، مُقارنةً بالمرأة المسيحية (2,7)، والهندوسيّة (2,4)، واليهوديّة (1,3).

ثالثًا: أن التحول الديني حاضرًا ومستقبلًا، هو لصالح المسلمين، فقد تناولت الدّراسة المذكورة أيضًا ,اتّجاهات التحوّل الدينيّ لدى الأشخاص، ولكن بسبب دراستها لسبعين دولةً فقط؛لم تتمكّن من إعطاء معلومات كافية في هذا الخصوص، وأظهرت الدّراسة عددًا من النّتائج، أهمها: أنَّ أعلى نسبة تحوّل بين الأديان هي بين المسيحيين، وقد توقّعت الدّراسة أن يترك (106) ملايين شخص الدّيانة المسيحيّة بين عامي (2010م -2050م)، في مقابل تحوّل (40) مليونًا إلى دين المسيحيّة من أصحاب الديانات الوثنية.

وسيتجاوز عدد المسلمين الهنود عدد المسلمين في إندونيسيا. وستكون الدّيانة الوحيدة التي لا يُتوقّع أن تشهد ارتفاعًا في عدد مُعتنقيها, هي البوذيّة, وذلك بسبب عوامل الشّيخوخة, ومُعدّلات الولادة المُتدنيّة, في البلدان التي تتبع تلك الدّيانة, كالصّين, واليابان, وتايلاند, وهذا يفسر أيضًا سعار البوذية الصينية الشيوعية, في عمليات إبادة المسلمين أو إخراجهم من دينهم.

رابعًا: أن هذه القوة السكانية الجرارة, تملك قوة افتراضية إستراتيجية جبارة, لو أحسن استغلالها لما كان لأحد قِبَلٌ بمواجهتها, فضلًا عن السيطرة عليها, خصوصًا في منطقة الشرق الأوسط, سواء بمفهومها القديم المستعمل في بداية القرن العشرين, والشامل لبلاد الجزيرة العربية واليمن, ومصر, وبلاد الهلال الخصيب في العراق وبلاد الشام؛ أو بمفهومها الحديث الذي استعمله بوش الابن, والذي حوى ما ذُكر من البلدان إلى جانب تركيا, وباكستان, وإيران, وأفغانستان.

وهذا العالم الإسلامي يمثل ما يسمى بـ«قارة الوسط», الممتدة من إندونيسيا شرقًا إلى المغرب العربي غربًا, وهي المنطقة التي قال عنها مُنَظِّر الصهيونية السياسي المخضرم الهالك «هنري كيسنجر»: «إن من يسيطر على وسط العالم, يسيطر على كل العالم», ومنطقة الشرق الإسلامي تشمل شبكة من الممرات المائية, والمضائق الإستراتيجية, ففيها مضيق هرمز الذي يمر منه (40%) من النفط المصدر للعالم, وبها مضيق البوسفور, ومضيق الدردنيل في تركيا, ومضيق جبل طارق في المغرب, ومضيق باب المندب في اليمن, وقناة السويس بمصر.

وأما من جهة الثروات, فالشرق الأوسط فقط من هذه القارة؛ يحوي ثلثي الثروة النفطية في العالم، والمنظمة المصدرة للنفط العالمي (أوبك) معظم دولها من الشرق الأوسط, وهي تملك (40%) من الناتج العالمي، و(70%) من الاحتياطي العالمي، وتضم (12) دولة نصف شعوبها تتكلم اللغة العربية, والمفترض أن الدول التي تتحكم في القرارات المتعلقة بالثروة النفطية, تتحكم في مسار الطاقة, ومن ثم في مسار الحضارة, هذا إن كان عند المسلمين ساسة في عالم السياسة.

خامسًا: عدد الدول الإسلامية في العالم يبلغ (57) دولة, فحتى بالمفهوم السياسي المعاصر، الذي لا يقيم اعتبارًا إلا للدول القومية المعترف بها؛ فإن هذا العدد يفترض أن يكون تكتلًا له ثقله الدولي، ويتمتع في مجموعه على الأقل- لو اتحد في التحديات - بحق الاعتراض أو «الفيتو», على مايضر شعوبه من القرارات, كما أن هناك دول ذات أغلبية مسلمة, لكنها غير مصنفة رسميًا ضمن الدول الإسلامية, التي صنعت الغثائية الجبرية منها مجرد هياكل سياسية..!

إن الشرق الأوسط الكبير وحده فيه ثماني عشرة دولة, منها ثلاث عشرة من داخل العالم العربي، وهي: المملكة السعودية, واليمن، وعمان، والإمارات العربية, والبحرين، وقطر، والكويت, والعراق، وسورية, ولبنان، والأردن، وفلسطين، ومصر، وخمس دول من خارج العالم العربي، وهي: إيران، وتركيا، وقبرص، وباكستان، وأفغانستان، ومساحة هذه الدول مجتمعة تبلغ 7,8 مليون كلم2, ويبلغ عدد سكانها (640) مليون نسمة, يمثل المسلمون السنة فيهم نحو (600) مليون نسمة.

سادسًا : على الرغم من أنّ الفقر هو السمة الغالبة على المجتمعات الإسلامية, بسب الفساد الداخلي أو الاستيلاء الخارجي على ثرواتها, إلا أن تصنيف الأمم المتحدة السنوي لمستوى التنمية في دول العالم, صنّف خمس دولٍ عربيةٍ, على أنها الأكثر نموًّا في العالم, وهي دولة بروناي، وًالبحرين، والإمارات العربية, والكويت, هذا عدا البلاد الإسلامية غير العربية, التي أصبحت قوة اقتصادية صاعدة, تأتي على رأسها تركيا, وماليزيا.

سابعًا: أما من ناحية القوة المادية العسكرية؛ فإن إمكانات العرب وحدهم؛ تجعلنا نخجل من عبارة (نحن مستضعفون) فجيوش العرب المعطلة الكبيرة ؛ كانت تكفي لو توافر الصدق والإخلاص ؛ للخلاص من قوى الاحتلال والاستغلال في أيام قليلة ..وهذا ما أثبتته وقائع حرب طوفان الأقصى التي أذلّت من كُتبت عليهم الذلة, خلال المعركة التي ألقى الغرب النصراني بزعامى أمريكا بكل ثقله فيها,, مع قلة الإمدادات وضخامة التحديات أمام الفئة القليلة من أهل فلسطين.

ووفقًا للمعلومات الموثقة عن الجيوش العربية وقوتها العسكرية والاقتصادية على موقع (غلوبال فاير باور) المختص بتصنيفات الجيوش عالميًا ..وبحسب ما نقله عنه موقع (روسيا اليوم).. فإن اتحاد هذه الجيوش بقيادة أقوى ٣ جيوش عربية هي مصر والسعودية والجزائر، يمكن أن يحولها لقوة عسكرية جبارة وهائلة..

- وبحسب الموقع؛ فإنه إذا تجمع الناتج القومي المحلي العربي؛ فإنه على الأقل سيتجاوز 5 تريليون و990 مليار دولار سنويا, وسيشغل هذا الناتج المرتبة الرابعة بعد الولايات المتحدة الأمريكية والصين والاتحاد الأوروبي. وسيتمكن العرب - لو تعاونوا إقتصاديًا- من إنتاج كميات هائلة من البترول، سوف تتجاوز إنتاج 24 مليون برميل يوميا, وهذا سيمثل 32% من الإنتاج العالمي.

- أما بالنسبة للقوة العسكرية وهي المفترض ان تمثل درع الأمة ضد عدو الله وعدوها , فسيكون قوام الجيش العربي الموحد- إن توحد - 4 ملايين جندي, و9 آلاف مقاتلة حربية, و4 آلاف طائرة مروحية, و19 ألف دبابة, و51 ألف مدرعة حربية, كما سيمتلك العرب اذا تعاونوا عسكريا 900 سفينة حربية, و 2600 قاذفة صواريخ, وأكثر من 14 غواصة.

- ووفقا للموقع المذكور.. فإن جيوش مصر والسعودية والجزائر؛ ستكون هي الأقوى في المنطقة, لو اجتمعت أو تعاونت, إذ تمتلك هذه الجيوش,مع بقية الجيوش العربية معظم الأسلحة المتطورة جويًا وبحريا وبريا.. والتي تتضاعف فاعلياتها - لو تم تفعيلها - لامتلاكها للعديد من عوامل القوة , من حيث العدد الإجمالي للأسلحة المتاحة وتنوع السلاح وحداثته , والميزانية الدفاعية لكل دولة وعدد جنودها , مع تضاريسها الطبيعية التي تلعب دورا دفاعيا كبيرا, كالجبال والأنهار والصحاري.

هذا كله على المستوى الرسمي العربي..فما بلك لو انضمت إليهم إمكانات وقدرات العالم الإسلامي، الذي يمثل ربع سكان العالم..

فقاتل اللّٰهُ العلمانيين.. الذين فصلوا - ضالين مضلين - السياسة عن الدين، فأضاعوا بذلك الدنيا والدين.

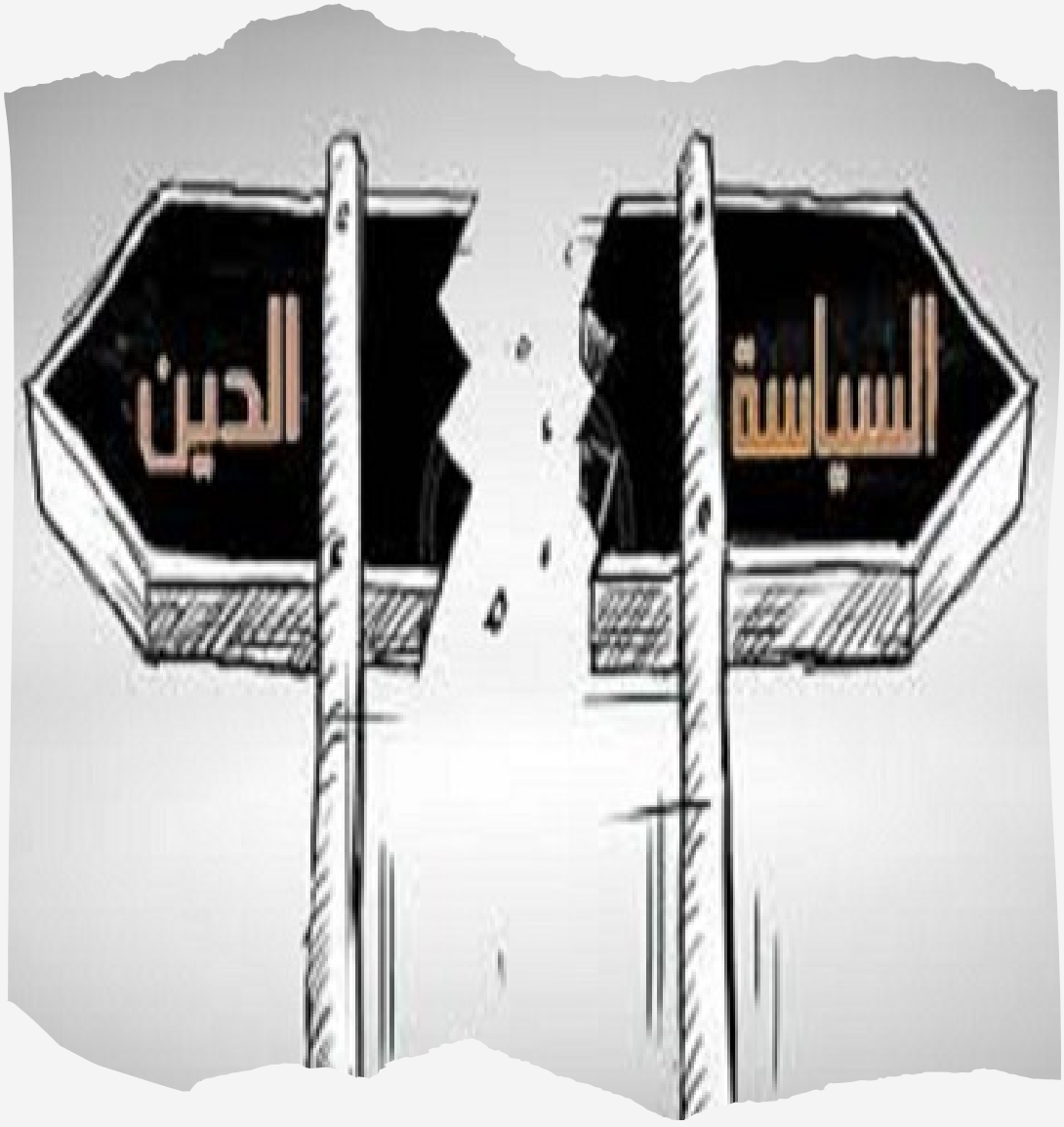

تأملات في معاني آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أ.د/ حكمت حريري

قال تعالى(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[آل عمران: 104], إن التأمل في بيان ووجهه التناسب والربط بين الآيات يعينه على تفسيرها وفهم المراد منها.

فقد سبق هذه الآية الكريمة الأمر بلزوم تقوى الله عز وجل والإعتصام بكتابه وعدم التفرق لأن التفرق ناتج عن اتباع الأهواء والشهوات فقال سبحانه(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[آل عمران:102, 103]

ولما كانت سورة آل عمران تتعرض لمحاجة أهل الكتاب والرد عليهم في كثير من الآيات فأحلوا ما حرم الله وحرموا كثيرا مما أحله الله, وصدوا عن سبيل الله وتفرقوإ واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وبعبارة

وجيزة اضمحل فيهم المعروف وعظم إنتشار المنكرات وهذا من أهم أسباب الهلاك؛ لذلك أمر الله المؤمنين في كتابه الكريم بقوله (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [آل عمران: 104]

فإن التزام تقوى الله والاعتصام بكتابه الكريم والنجاة من الهلاك إنما يكون من خلال أمة (جماعة) تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

فقوله تعالى(ولتكن منكم أمة) اللام لام الأمر ولتكن منكم أمة منكم لا من غيركم أي ممن يعتقدون عقيدتكم ويدينون دينكم, فالأمة : الجماعة التي تؤم أي تقصد لأمر ما وتطلق على أتباع الأنبياء لاجتماعهم على مقصد واحد.

وقوله (يدعون الخير) اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه. (يأمرون بالمعروف) وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه.

وينهون عن المنكر) وهو ما عرف بالعقل والشرع قبحه. قال (يدعون إلى الخير) أي الدعاء إلى ما فيه صلاح الدين والدنيا ؛ عطف عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا من باب عطف الخاص على العام إيذانا بمزيد فضلهما على سائر الخيرات.

وقد تحققت شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عاى الوجه الذي عجزت عن تحقيقه الأمم السابقة, فقال تعالى في الثناء على أمة الإسلام (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) [آل عمران: 110]

من الأحكام والفوائد التي تستنبط من الآية:

1- تعظيم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأنها أفضل الأمم وأكرمها على الله تعالى.

2- الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أفضل الأمة لأنهم المخاطبون حال النزول.

3- النبي محمد عليه الصلاة والسلام أفضل الأنبياء لأن شرف الأمة بشرف نبيها.

4- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الشرائع التي فرضت في جميع الكتب السماوية ولم يقم بها حق القيام إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي الحديث عن معاوية بن حيدة القشيري رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال: "إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله".

إنتشار المنكرات وعدم إنكارها من أهم أسباب الهلاك

قال تعالى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ) (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [المائدة: 79,78].

أي لعنهم الله في الزبور والإنجيل، فإن الزبور لسان داود والإنجيل لسان عيسى أي لعنهم الله في الكتابين، ذلك بما عصوا أي ذلك اللعن بعصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم .

كانوا لا يتناهون: أي لا ينهى بعضهم بعضا عن معاودة منكر فعلوه و تهيئوا له,(لبئس ما كانوا يفعلون) تعجيب من سوء فعلهم.
وقال تعالى < فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ>[هود: 116]
أي هلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، إلا قليلا: أي قد وجد من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا وهم الذين أنجاهم اللّه عند حلول عذابه وفجأة نقمه.
{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} هود: 117]
فيما بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعض وإنما يهلكهم إذا تظالموا وارتكبو السيئات ولم يتناهوا عن المنكرات, وفي الحديث عن أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أي يا عمهم اللّه بعقابه).
وعن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق اللّه ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك, ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب اللّه قلوب بعضهم ببعض ثم قال:< لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ> [المائدة: 78],
ثم قال كلا واللّه لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا أو تقصرنه على الحق قصرا).
أن ينكروه فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب اللّه العامة والخاصة).

وعن عدي بن عميرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة).
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة فارقة بين المؤمنين والمنافقين
قال تعالى ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[التوبة: 67]
وقال تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[سورة التوبة: 71]
فقد ذكر سبحانه وتعالى من صفات المنافقين الذميمة:
(بعضهم من بعض) أي تشابه في النفاق والبعد عن الإيمان فاشتركوا في تولي بعضهم بعضا, فنفى أن يكونوا من المؤمنين, ثم ذكر وصفهم العام وهو أخص صفاتهم الذميمة الذي لا يخرج منه صغير ولا كبير, فقال: (يأمرون بالمنكر) وهو ما تستقبحه العقول الصحيحة وتنكره الأذواق السليمة من الكفر والفواحش والمعاصي، (وينهون عن المعروف): وهو الإيمان بالله والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب الحسنة.
ثم ذكر وصفا آخر ذميما للمنافقين وهو البخل والامتناع عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطون أيديهم في خير, نسوا الله: فلا يذكرون الله إلا قليلا, فنسيهم: تركوا طاعة الله فتركهم من توفيقه وهدايته وعاملهم معاملة من نسيهم

,(وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ) [الجاثية: 34]
(إن المنافقين هم الفاسقون) حصر الفسق فيهم لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم وعذابهم أشد من عذاب غيرهم فهم في الدرك الأسفل من النار.
هذا وإن سورة التوبة سميت الفاضحة لأنها فضحت المنافقين ومعظم آيات السورة تدور حول بيان صفات المنافقين والتحذير من أخلاقهم أو الثقة بهم.
ولما تكرر في القرآن الكريم أسلوب الربط والتضاد أو المقارنة بين الإيمان والكفر والخير والشر والعلم والجهل والظلمات والنور, لما كان الأمر كذلك ؛ أتبع سبحانه الآيات التي تبين صفات المنافقين أتبعها بذكر صفات المؤمنين.
(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) في الدين واتفاق الكلمة, يتناصرون ويتعاضدون كما قال عليه الصلاة والسلام: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر).
وقد أثنى الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه من المؤمنين في كتب السابقين فقال : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الأعراف: 157].

ثم وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما وصف به نبيها فقال:(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) [آل عمران: 110]

وقد آتى الله تعالى لقمان الحكمة, ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فكانت وصية لقمان لابنه وهو يعظه , فكان من وصيته لابنه :

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [لقمان: 17]

شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية لقوله تعالى (ولتكن منكم أمة) فيقصد بها التبعيض لأن في الأمة من لا يقدر على الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالمرضى والعاجزين، وأن هذا التكليف مختص بالعلماء لأن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشروطة بالعلم فقال تعالى(۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)[سورة التوبة: 122], وقال تعالى(الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)[سورة الحج: 41]وليس كل الناس يمكنون, لذلك أجمعت الأمة على أن ذلك واجب على الكفاية.

ولما كان الأمر كذلك ؛ كان لابد في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من شروط وصفات تتوافر فيه, ومن ذلك أن يكون عليما حليما صبورا, وألا يخاف في الأمر أذى يصيبه , فإن فعل مع ذلك فهو أعظم لأجره,

ففي الحديث عن أبي سعيد على المر إلا بنوع من الخدري رضي الله عنه، قال قال الحلو،ولذلك أمر الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم:(بتأليف القلوب حتى جعل أفضل الجهاد كلمة حق عند للمؤلفة قلوبهم نصيبا من سلطان جائر). الصدقات.

أما العلم فأن يكون على علم وأما الصبر فإنه ضروري في بالمعروف والمنكر والتمييز شؤون المرء كلها خصوصا عند بينهما، وعالمًا بأصلح الأمور الأمر بالمعروف والنهي عن وبحال المأمور والمنهي، وعارفًا المنكر، فيكون أشد لزوما كما بالأحكام الشرعية والقواعد بين تعالى في وصية لقمان لابنه الفقهية، وعلى علم بخير (يا بني أقم الصلاة وأمر الخيرين وتحمل أخف الضررين بالمعروف وأنهى عن المنكر ودفع أعلى المفسدتين، وأن درء واصبر على ما أصابك إن ذلك من المفاسد مقدم على جلب عزم الأمور).

المصالح، وأن الضرورات تبيح وهناك مراتب للناس في الأمر المحظورات... إلخ. بالمعروف والنهي عن المنكر:

وأما الحلم فإنه يقتضي الرفق أولًا : فرضٌ على العلماء تنبيه والإحسان لقوله عليه الصلاة الحكام والولاة وحملهم على والسلام:(ما كان الرفق في جادة العلم.

شيء إلا زانه وما كان العنف في ثانيًا : فرضٌ على الولاة تغيير شيء إلا شانه). المنكر بقوتهم وسلطانهم.

كما يجب على كل من يأمر غيره ثالثًا : فرضٌ على سائر الناس رفع بالإحسان أو أحب موافقته على المنكر إلى الحكام والولاة بعد ذلك أو نها غيره عن شيء فإنه النهي عنه قولا، وإن رأى أحدنا يحتاج إلى أن يحسن لمن أمره زلة طارئة من المنكر كالسلب أونهاه حتى يحصل على والزنا أو نحوها فبيغيرها بنفسه مقصوده، إذ النفوس لا تصبر بحسب الحال والقدرة.

الشيخ ابن عثيمين.. فقيه عصر وعالم ملة

أ د. الحسن بن علي الكتاني

قلة من العلماء؛ أولئك الذين نذروا أنفسهم للعلم والتعليم، مع تصدرهم للشأن العام، وتوجيههم للشباب، وتأثيرهم عليهم.

وإن من أولئكم العلماء الذين كانت لهم بصمة ظاهرة على جيل شباب زمانهم، وكانوا كالأب العطوف على أبنائه شيخنا العلامة الإمام أبو عبد الله محمد بن صالح بن عثيمين، رحمه الله ورضي عنه.

لقد كان شيخنا حالة فريدة ضمن علماء القرن الماضي، فبينما هو في مسجده يدرس الكتاب تلو الكتاب، في شتى فنون العلم، وبعبارة تناسب جميع الطلبة، وتقرب لهم عسير العلوم، إذا هو يخطب في منبره خطبا هادفة توعي الناس، وترشدهم لما ينفعهم.

ثم ها هو يدرس في مدرجات الجامعة, ويلقي المحاضرات القيمة هنا وهناك.

ولك أن تتخيل مجلسه في الحرم المكي الشريف بعد صلاة التراويح في أشهر رمضان من كل عام, فلم أر قط مجلسا أعظم ولا أهيب منه.

يدعُ الجواب فلا يراجع هيبةً
والسائلون نواكس الأذقانِ
هدى الوقار وعزّ سلطان اَلتقى
فهو المُطاعُ وليس ذا سلطانِ

وشيخنا, رحمه الله, هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن عثمان الوهبي التميمي، القصيمي النجدي، الحنبلي الأثري. وجده الأعلى عثمان عرف بعثيمين، تصغيرا, فجرت على عقبه من بعده.

ولد في مدينة عنيزة أشهر مدن القصيم من بلاد نجد في 27 رمضان المبارك 1347هـ.

كان جده لأمه عبد الرحمن بن سليمان بن دامغ عالما فاضلا, فبدأ دروسه عليه, وذلك بحفظ كتاب الله, مع الكتابة والقراءة, على ما كان معروفا آنذاك في بلاد المسلمين.

ثم لازم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، رحمه الله, وأصبح من أخص أصحابه, وتأثر به وبطريقته في التدريس والكتابة. فأخذ عنه جل فنون العلم, من كتبه التي صنفها في كل فن، اعتقادا وفقها وحديثا ولغة وغير ذلك.

ثم انتقل لطلب العلم في الرياض حين فتحت المعاهد العلمية سنة 1372 هجرية فالتحق للدراسة فيها. فأخذ عن الشيخ عبد العزيز بن باز, رحمه الله, وتأثر به وبعنايته بالحديث والأثر. وقرأ عليه من صحيح البخاري، وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية, وبعض الكتب الفقهية.

وكذلك درس على الإمام محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، رحمه الله, وتأثر بطريقته في التفسير.

وبعد وفاة شيخه العلامة عبد الرحمن السعدي سنة 1376 هجرية بفترة استلم الإمام ابن عثيمين إمامة الجامع الكبير في عنيزة خلفًا لشيخه,

وحينها تصدر للتدريس مكان شيخه. فبقي نجمه يعلو شيئا فشيئا، حتى أضحى من كبار علماء عصره الذين يرجع الناس إليهم. وتتلمذ على يديه أمة من العلماء، حتى إن جل مشاهير علماء هذا القرن من دعاة السنة والأثر يعدون من تلاميذه وأصحابه. وتولى عدة مناصب من أهمها عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية.

وقد تميز الشيخ، رحمه الله، بالزهد والبعد عن أبواب السلاطين، على طريقة علماء السلف الصالح، رحمهم الله. وكان الملوك يزورونه في بيته، ويعرضون عليه خدماتهم، فلا يجدون منه إلا التعفف والإباء.

وكان متواضعا في هيئته ولباسه، لا يتكلف لشيء من ذلك، مع وجه بشوش، دائم التبسم والبشر.

وكان العديد من تلاميذه قد نفروا للجهاد في الشيشان، وأفغانستان والبوسنة والهرسك، فكانوا على تواصل دائم معه، يستفتونه ويرجعون إليه في نوازلهم.

فلا يقصر في الجواب، مع تألم لحال المسلمين، وغيرة عليهم. وقد كانت له همة عالية جدا في التدريس، لا يكل ولا يمل، فبارك الله له في دروسه، حتى إنه وإن كان قليل التأليف، بحيث إننا لا نعرف له إلا مؤلفات صغيرة، عبارة عن شروح عقدية، أو مسائل فقهية، لكن تلاميذه فرغوا له جميع شروحه الصوتية وحرروها حتى أضحت مؤلفات جليلة، وطبعت أفخم الطبعات في مؤسسة خصصت لذلك.

وقد أصبح تراثه العلمي اليوم مرجعا للناس، أصولا وفقها واعتقادا ولغة وتزكية وغير ذلك. حتى أضحى شرحه "الممتع على زاد المستقنع" مرجعا فقهيا لكثير من الناس، لتحريره المسائل، وحسن تصويره لها.

لقد كان الشيخ ابن عثيمين، رحمه الله، حنبليا أثريا، شديد التأثر بشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، رحمها الله. ومنذ بداية دراسته تدرج في كتب الحنابلة، وتمكن في المذهب، لكنه كذلك ابتدأ دراسة كتاب شيخه السعدي

" منهج السالكين" وهو كتاب صنفه خرج فيه عن مشهور المذهب في كثير من المسائل، وتابع فيها ابن تيمية وغيره، بما أداه إليه اجتهاده.

ولذلك جاءت شروح الشيخ، رحمه اللّه، متحررة من التقيد المذهبي، مع تقريره المذهب ثم انتصاره لما يراه أحق وأصوب. وهذا ما جعل شروحه ماتعة شيقة، مع تقريره للنوازل المعاصرة، وحله لكثير من الإشكالات , مع أنه نشأ في بيئة حنبلية متشددة، لا تقبل الخروج عن مشهور المذهب.

وقد جمع تلاميذه من فتاواه موسوعة كبيرة ورتبوها على الأبواب، على غرار " مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" رحمه اللّه، وهي مطبوعة متداولة.

أما كتبه العقدية، فقد كان متقيدا فيها بما عليه السلف، تاركا التنطع والتقعر والغلو الذي وقع فيه بعض دعاة السنة والتوحيد.

ومن المسائل التي قررها أحسن تقرير، وتابع فيها شيخه السعدي، الذي تأثر فيها بتقريرات شيخ الإسلام ابن تيمية مسألة العذر بالجهل وإقامة الحجة، فقد خالف في ذلك ما عليه كثير من أنصار مدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه اللّه، وجنح لتوسيع العذر بالجهل، وهو ينسب ذلك للشيخ ابن عبد الوهاب نفسه. وبه وبأمثاله خف الغلو في التكفير، والتشدد في بلاد نجد، الذي كان معروفا آنذاك.

لم يكن الشيخ رحمه اللّه، مثل كثير من العلماء المعاصرين ممن شغفوا بجمع الكتب وتضخيم المكتبات، بل حدثني من رأى مكتبته فإذا هي مكتبة صغيرة، فيها أمهات الكتب وأساسياتها فقط، ومنها يستقي ويستمد.

وعرف عن الشيخ حسن ثنائه واعتذاره عن علماء المسلمين، حتى الذين وقعوا في مخالفات عقدية، فيلتمس لهم شتى الأعذار، ويغلظ على من يتكلم بسوء على من ثبت صدقه ونصحه للمسلمين، وترك تراثا جليلا ينتفعون به.

وبالجملة، فالكلام عن شيخنا طويل الذيل، يحلو ويطيب، وقد صنف في ترجمته جماعة من

تلاميذه وأصحابه, فأحسنوا, جزاهم الله خيرا. وأنا لم أقصد هنا تكرار ما كتبوه, فإن ذلك أسهل ما يكون, ولكني قصدت الإفادة بشيء جديد.

مرض شيخنا, رحمه الله, في آخر حياته, واكتشف مرضه متأخرًا في مستشفى الملك فهد بالحرس الوطني, ثم أُجريت له فحوصات أخرى في مستشفى الملك فيصل التخصصي, واختلف الأطباء في طريقة العلاج النافعة, ثم سافر إلى أمريكا للاطمئنان على صحته, وهناك استقر رأي الأطباء على علاجه بالأشعة, وجرعات مخففة من الكيماوي أولًا, ثم بالكيماوي وحده لاحقًا.

وعاد الإمام إلى بلاده, فجاور في المسجد الحرام في شهر رمضان سنة 1421 هجرية في أيامه الأخيرة. وفي يوم الأربعاء الخامس عشر من شوال سنة 1421 هجرية, وقبيل صلاة المغرب توفي في مدينة جدة من أرض الحجاز, وهز نبأ وفاته العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

وصلى عليه في يوم الخميس 16 من شوال في المسجد الحرام, وصلى عليه عشرات الآلاف من الناس قدموا للصلاة عليه من جميع أنحاء الجزيرة العربية .

رحم الله الشيخ الجليل وجزاء عن أمة الإسلام خيرًا كثيرًا

قراءة نقدية لتفسيرات المستشرقين للسيرة النبوية

ذكر اللّٰهُ العليم الخبير في كتابه أن بعضًا من المسلمين يتأثرون بخطاب الكافرين، أو يعاونون الكافرين على كفرهم وسعيهم في صدِّ الناس عن دين اللّٰه, يقول اللّٰه تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ (سورة التوبة: من الآية47) أي: "ضَعفة يسمعون قولهم ويطيعونهم أو نمّامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم" ([1]).

ومن قبل قدَّم المستشرقون والمنصّرون شبهاتهم على أنها قراءتهم هم للشريعة الإسلامية, وذلك حين كانوا يخاطبون من خَلْفهم من قومهم ممن لا يعرفون شيئًا عن الإسلام إلا من خلالهم هم. وبعد أن أصبح التواصل ممكنًا بين الناس من خلال وسائل التكنولوجيا الحديثة, وبعد أن تتلمذ نفرٌ من المسلمين على أيدي المستشرقين في البعثات العلمية وتعلموا من كتبهم التي انتشرت بيننا, وبعد أن شاع خطاب التنصير في الفضائيات ووسائل التواصل؛ راح هؤلاء (التلاميذ والمتأثرين) يقدّمون قراءة جديدة للسيرة النبوية الواردةفي نصوص الوحي كتابًا وسنة, من خلال مذاهبهم العلمانية التي آمنوا بها

ويمكننا وضع إطار نظري لفهم تفسيرات الكافرين والمتأثرين بهم , يتمثل في مقولة أساسية, وهي ادعاء "حتمية تأثير البيئة والعوامل الوراثية", ويتفرع عن هذه المقولة مقولة أخرى فرعية وهي "التطور المعرفي". ونرد عليهم من خلال مقولة رئيسية هي "فجائية الدعوة". فهذه ثلاث مقولات يشكل الوعي

([1]) ينظر: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، للإمام ناصر الدين أبو سعيد عبد اللّٰه بن عمر البيضاوي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي،1418هـ)، ج3، ص83.

بها إطارًا نظريًا أو مقدمة منهجية لدراسة تفسيرات المستشرقين والمتأثرين بهم للسيرة النبوية والرد عليهم.

أولًا: ادعاء حتمية البيئة والعوامل الوراثية, والتطور المعرفي[1]:

وتعني الزعم بأن البعثة المحمدية إفرازٌ للبيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ أو الزعم بأن ما جاء به رسول الله ﷺ كان امتدادًا لما كان سائدًا في بيئته الصغيرة ـ قريش بمكة المكرمة ـ خصوصًا؛ والبيئة العربية عمومًا.

والمتحدثون بحتمية البيئة يقولون بضرورة التطور المعرفي، فعندهم أن كل بيئة لها معرفة خاصة بها, وكلما تطورت (تغيرت) البيئة تطورت المعارف؛ ويعني التطور بالضرورة, أن الواقع (البيئة) هو مصدر القيم , وأنه هو الذي ينشئ الأخلاق ويؤسسها, ويعني, بالضرورة كذلك, النسبية, فما هو حرام هنا قد يكون مباحًا في بيئة أخرى!!

وانطلاقًا من هذه المقولة (حتمية البيئة, والتطور) يزعمون أن الإسلام متعدد حسب الزمان والمكان: إسلام مكة, وإسلام المدينة, وإسلام الراشدين, والأمويين, وهكذا [2]؛ ويزعمون: أن النص بعد أن صنعته البيئة الأولى تعرض لتأويلات متباينة تبعًا للزمان والمكان وتبعًا لحال من يقرأ الشريعة, فإسلام خاص بأهل السنة, وإسلام خاص بالمعتزلة, وإسلام خاص بأهل التصوف[3]!!

وانطلاقًا من هذه المقولة (حتمية البيئة, والتطور) ظهرت تفسيرات للبعثة المحمدية مثل: التفسير السياسي

([1]) وهذه المقولة هي قاعدة علم الاجتماع العلماني (الحديث) يتعاملون معها كمسلمة معرفية (قانون), ومصدر الفكرة من عند ابن خلدون, يسميها "قوانين الاجتماع الإنساني", ينظر: "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر", لعبد الرحمن بن خلدون, (بيروت, دار الفكر العربي, 1408هـ/1988م), ج1, ص13.

([2]) من الكتب التي ذكر فيها مثل هذا الافتراء, كتاب هشام جعيط "في السيرة النبوية: الوحي والقرآن والنبوة".

([3]) جمع هذا النوع من الأقوال نصر أبو زيد في عدد من كتبه, مثل: "النص, السلطة, الحقيقة", و"مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن", و"إشكاليات القراءة وآليات التأويل", و"فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي", وللوقوف على مناقشة نقدية لما قدمه "نصر أبو زيد" ينظر: "القراءة التأويلية لدى نصر حامد أبو زيد" لخالد القرني, (الرياض, وجوه للنشر والتوزيع, 1435هـ).

والاقتصادي للبعثة المحمدية [1]؛ والتفسير من خلال العبقرية والتخطيط الاستراتيجي (أو الصفات الشخصية) [2]؛ والتفسير من خلال النشاط المعرفي في بيئة الوحي (مكة والمدينة) وذلك بالزعم بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعلم على يد أقرانه واقتبس من اليهود والنصارى [3]؛ والزعم بأن النبوة تطور لعادات دينية وجدت قبل محمدٍ بن عبد الله ﷺ [4]

[1] من أمثلة الكتابات الحديثة التي ظهرت فيها هذه الأفكار كتاب "الربيع الأول" للأستاذ وضاح خنفر, وكتاب "مطلع النور" لعباس محمود العقاد, وكتاب "الحزب الهاشمي" و "حروب دولة الرسول", لسيد محمود القمني. وهؤلاء على اختلاف ما بينهم إلا أنهم جميعًا ينطلقون من ذات النقطة (البيئة, والصفات الشخصية) ومقل ومكثر.

[2] من أشهر الأمثلة على ذلك ما خطه المؤرخ الأمريكي المشهور ديورانت في "قصة الحضارة", وعباس العقاد في عبقرياته.

[3] ومن أشهر الأمثلة على ذلك كتابات القس الماروني "جوزيف قزي/ أبو موسى الحرير", وخاصة الكتب الأربعة التي بدأ بها سلسلة "الحقيقة الصعبة" وهي: "قس ونبي", و"نبي الرحمة" و"عالم المعجزات", و"أعربي هو"كتابه "قس ونبي", . وكتابات خليل عبد الكريم وخاصة كتاب "فترة التكوين" و"الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية".

[4] ظهرت هذه الأفكار جلية في كتاب توفيق فهد "الكهانة العربية قبل الإسلام: الكاهن, الكاهنة, النبي, الشاعر, الحازي, الساحر, الرائي, العراف, الرب, ذو إله, الحمس", وظهرت أيضًا في كتابات نصر حامد أبو زيد.

---

[1] من أمثلة الكتابات الحديثة التي ظهرت فيها هذه الأفكار كتاب "الربيع الأول" للأستاذ وضاح خنفر, وكتاب "مطلع النور" لعباس محمود العقاد, وكتاب "الحزب الهاشمي" و "حروب دولة الرسول", لسيد محمود القمني. وهؤلاء على اختلاف ما بينهم إلا أنهم جميعًا ينطلقون من ذات النقطة (البيئة, والصفات الشخصية) ومقل ومكثر.

[2] من أشهر الأمثلة على ذلك ما خطه المؤرخ الأمريكي المشهور ديورانت في "قصة الحضارة", وعباس العقاد في عبقرياته.

[3] ومن أشهر الأمثلة على ذلك كتابات القس الماروني "جوزيف قزي/ أبو موسى الحرير", وخاصة الكتب الأربعة التي بدأ بها سلسلة "الحقيقة الصعبة" وهي: "قس ونبي", و"نبي الرحمة" و"عالم المعجزات", و"أعربي هو"كتابه "قس ونبي", . وكتابات خليل عبد الكريم وخاصة كتاب "فترة التكوين" و"الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية".

[4] ظهرت هذه الأفكار جلية في كتاب توفيق فهد "الكهانة العربية قبل الإسلام: الكاهن, الكاهنة, النبي, الشاعر, الحازي, الساحر, الرائي, العراف, الرب, ذو إله, الحمس", وظهرت أيضًا في كتابات نصر حامد أبو زيد.

وإنَّ تَعَدُد التفسيرات مع تضاربها.. وإن تكرار الشبهة بعد الرد عليها؛ أمارة على أن المتكلم بالشبهة لا يريد جوابًا, وإنما يريد صرف الناس عن دين الله.

وبدهي أن ذات البيت وذات البيئة أنتجت الأضداد, فقد كان خير خلق اللهﷺ, وأبو طالب وأبو لهب, من بيئة واحدةٍ. بل ومن بيتٍ واحد "بني عبد المطلب بن هاشم"؛ ومن صلب رأس النفاق خرج ابنه "عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول", وكان ممن يحب الله ورسوله؛ وفي بيت نبي الله نوح - عليه السلام- تربى ولده الذي كان من المغرقين؛ وفي بيت فرعون كانت آسية التي صدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين, وفي بيت نوح ولوط, عليهما الصلاة والسلام, امرأتان على غير ما عليه زوجيهما. فكيف يقال أنها البيئة وأنها العوامل الوراثية؟!

وإن التغيير الذي أحدثه الوحي لم يرتبط بمكة والمدينة, بل لم يرتبط بالجزيرة العربية, وإنما حدث في أماكن أخرى تختلف عنهم اختلافًا كبيرًا, كبلاد فارس وبلاد الترك, والمغرب العربي, والسودان, وأوروبا؛ وكذلك امتد التغيير لأزمنة مديدة ولم يقتصر على جيلٍ أو جيلين.

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة:100). فالنص ليس مفتوحًا لتأويلات لا نهائية كما يدّعي السماعون للكافرين[1].

---

[1] والمتحدثون بهذه الأقوال يطبقون، بقصد أو بدون قصد، مناهج الحداثيين في فهم الوحي، تحديدًا الانثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان طبيعيًا واجتماعيًا وحضاريًا) والهرمنيوطيقا (تأويل النص حسب الزمان والمكان الذي يقرأ فيه) والفينومينولوجيا (الوعي بالظواهر الاجتماعية وطريقة إدراك الشخص لها وكيفية حضور الظواهر في خبرته). وهذه المناهج تجتمع على شيء واحد وهو: إلى إلغاء المعيارية (وجود نموذج [معيار] يقاس عليه) في فهم الوحي!!

ثانيًا: فجائية الدعوة:
حين تجمع المشهد قبل البعثة وبعدها بين يديك وتعيد النظر فيه مرة بعد مرة ؛ تجد عدة أمور, من أهمها:
_ أن البشرية كانت تنتظر رسولًا من اللّٰه.. يبشر به اليهود والنصارى وغيرهم. و والبشارة بالنبي صلى اللّٰه عليه وسلم مبسوطة في كتب السير والتفسير. ويعيننا هنا أن حال الناس وقتها هو التعلق بالله لإصلاح حالهم, بخلاف حالهم اليوم بعد أن تحكمت العلمانية المادية (الوضعية) فأوهمت بعضهم بأن الإنسان قادرٍ على إصلاح دنياه من تلقاء نفسه.
_ وتجد أيضًا أن الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم, عاش بين قومه أربعين سنة لم يفارقم , بل ظلّ بينهم, حتى في المرتين اللتين سافر فيهما متاجرًا كان رفقة بعضهم؛ وخلال هذه العقود الأربعة لم يجلس لأحد متعلمًا, بمعنى أنه لم يتعرض لتطور معرفي انتهى بالرسالة. وكذلك لم تؤثر فيه البيئة بأعرافها السائدة, فقد كان مخالفًا لقريشٍ في دينها, لا يتقرب لأصنامهم, ولا يقف بمزدلفه مثلهم, ولا يلتزم بشعائرهم في الأعياد والمواسم, وذلك دون أن يكون له موجِّه أو مثيل من بينهم؛ حتى التأهيل الخلقي كان من اللّٰه كليةً (شق الصدر, وفي الحديث: أدبني ربي فأحسن تأديبي). وتلقائيًا؛ بدأ يتحدث بحديثٍ آخر (القرآن الكريم) من جنس كلامهم ويخالف كلامهم صياغة (الآيات والسور), وقراءة (الترتيل), ومحتوى (الأخبار عن اللّٰه الخالق الكبير المتعال بغير ما يتحدثون, وعن الموت وما بعده, وعن السابقين واللاحقين, والشرائع, والتشريعات), يقول اللّٰه تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) (العنكبوت:48), ويقول اللّٰه تعالى: (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (يونس:16).

وقل مثل هذا في حق الصحابة رضوان الله عليهم, فالذين وحدوا الجزيرة العربية تحت راية الإسلام وكسروا كسرى وأرغموا قيصر على ترك الشام وشمال أفريقيا ثم حاصروا عاصمته (القسطنطينة).. لم يتصلوا بغيرهم مطلقًا قبل فتح هذه البلدان، ولم يطوروا شيئًا من علوم الأرض. هؤلاء, الذين هم أهم حدثٍ في تاريخ البشرية, نبتوا فقط من الوحي (الكتاب والسنة), يقول الله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (آل عمران: 164).

والملاحظة الأهم, والتي تزيد من دحض الزعم بأن البيئة صنعت الوحي وأن التطور المعرفي مسلمة, استحضار أن الدعوة لم تتفاعل مع أسئلة مطروحة في البيئة التي بعث فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل أثيرت قضايا جديدة: عن الخالق سبحانه وعز وجل، وعن الخلق، وماذا يراد منهم وماذا ينتظرهم إن أمنوا أو كفروا, وعن الأنبياء, صلوات الله عليهم, والكتب المنزلة, وحال من كذب الرسل وحال من أمن واتبع؛ ووضعت تشريعات جديدة في التعامل بين الناس، وفي علاقة الناس بمن يحكمهم, فضلًا عن علاقتهم بربهم سبحانه وتعالى.

إن معالجة الزعم بأن البيئة صانعة وأن التطور حتمي عن طريق بيان فجائية الدعوة وجوهرية التغيير الذي أحدثه الوحي في الفرد والمجتمع, ومفاصلته للمناهج الأرضية حال نزوله وهيمنته عليها بعد ذلك, من أهم المداخل لدراسة السيرة النبوية, ومن خلال هذا الإطار النظري يتم كشف كثير من المناهج الزائفة التي حاولت تحريف الكلم عن مواضعه, أو تلك التي أصغت للكافرين وتأثرت بهم وحاولت تقديم البعثة في قالب حداثي بقصد حسن أو بقصدٍ سيء.

مجلة

بيّنات

العدد 14